دِيمُومَةٌ

رواية

عامر صالح محمود

obeikan.com

دار بيوند للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

الكتاب: ديمومة

المؤلف: عامر صالح

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: محمد علي

تنسيق وتحرير: سوزان خليفة

إخراج داخلي : صبرينة غلمي

المقاس:20*14

رقم الإيداع: ٢٦٨٦٢ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي:978-977-85372-6-0

رئيس مجلس الإدارة

محمد عزالدين

المدير العام

صبرينة غلمي

All Rights Reserved
Beyond for Publishing and Distribution
+2 01095600007
beyond.dbh@gmail.com
www.facebook.com/beyond.PDH
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إهداء إلى الأب ذلك الذى يحميك حين تشتد عليك الصعاب

إهداء إلى الأم تلك التى وإن تخلى عنك العالم بأسره فهى لن تفعل

إهداء إلى ظل رفض أن يفارق ..لروح أبت أن تعيش فى بعد آخر....

عامر صالح

obeikan.com

إلي من بحثوا عن السعادة في الحياة، فلم يجدو فيها أسعد من الموت

أهدي لهم تلك الكلمات

obeikan.com

مريعٌ هو الموت،
ولكن الأشد ترويعاً منه
هو شعورك بأنك قد تحيا إلى الأبد
ولن تموت أبداً.

(إنطون تشيخوف - قصص قصيرة - دفاتر سرّية)

obeikan.com

من الأفضل ألا يكون

الإنسان قد ولد قط...

أما إذا حدث وولد

فلا خير يبقى له سوى أن يرحل.

سوفوكليس: مسرحية "أوديب في كولونوس"

obeikan.com

هي الحلم والكابوس،

البقاء والفناء،

الفريسة والمفترس،

الشهوة والعفة،

عشق العبادة وبغض التحريم،

هي الرغبة حتي النخاع
والابتعاد قدر الإمكان،

هي الداء والدواء،

هي الجنة والفردوس
وجحيم النار والخطايا،

هي من أخرجت آدم من الجنة
وأتت بنا إلي الأرض،

ما الديمومة إلا أنا، فأمسك بيدي أصحبك إليها،
أو استمسك بروحك وابتعد عنا؛

حينها فقط ستعلم ما هي الديمومة

obeikan.com

- لن يقبل بخلودك كي لا تنازعه علي المُلك
- لكنني من خلقه وصنيعته
- وأنا أيضًا من صُنعه، لكنني أردت أن أكون ملكًا علي نفسي لا مملوكًا لأحد آخر
- إنه الله !!
- أعلم أنه الله وأعلم أنه بث فينا من روحه بعثنا لنكون عبيدًا له لا لننازعه علي العرش، ألم يخطر في بالك أن تتساءل لم منع عنك تلك الشجرة لم تُخلق لتكون حرًا بل عبدًا اصطفاه لنفسه لتنفذ فقط أوامره.

تأمل آدم في ذلك الصوت القادم إليه، يبحث عن مصدره يتفكر كلماته ولا يري من الحقيقة شيئًا، اقترب رويدًا رويدًا من تلك الشجرة، كانت نفسه تعافها بأمرٍ من خالقه، أما الآن فطيب رائحتها يزكم أنفه حتي لم يعد يري غيرها، خطواته بدأت بطيئة ثم سريعة فمتعجلة، والصوت يعود من جديد ليصدح مجددًا، خلد روحك واجعل من نفسك إلهًا لا يؤتمر، أنت فانٍ ولن تكون سوي ذلك مهما بذلت له من عبادة، ارتق لتجلس بجواره وقد تزيحه وتحل محله، الصوت يتكرر وكلما تردد آدم وشعر برغبة في التراجع كلما كانت تلك الكلمات تزيد عمقًا وقوة، لتكن خالدًا وأكون خادمك المطيع وعبدك العابد الناسك إليك، أنت لن تصدق إلا إذا جربت بنفسك، الوسوسة تستمر وآدم يحاول أن يقاوم، أن ينأى بنفسه عن زفير نجس لا يخرج سوي من شيطان

رجيم لكن روحه كانت قد سقطت في تلك البئر، توغل الشيطان بداخلها، أغرقها في الوحل حتي صارت سوداء كسواد غراب سيراه فيما بعد، مع آخر تلك الكلمات قطف آدم أولي ثمار معصيته، طلب الديمومة والبقاء، أراد أن يرتمي في أحضان الخلود أن يبحث عنه في جنة لا يدخلها سوي المخلدون فهبط إلي الأرض مكلومًا محزونًا في شقاء لا ينتهي أبدًا، عصي ربه، طلب الغفران، سار إلي طريقه دون أن يتوخي الحذر وكان البشر هم النتيجة .

obeikan.com

- كيف حالك إليوم؟!
- أقل سوءًا من الأسبوع الماضي.
- هل مازلت تفكر في الا نتحار؟
- لا، فقد تراجعت عن تلك الفكرة فهناك أمور أكثر أهمية يجب أن أفعلها.
- وما هي تلك الأمور؟
- سأقتل جميع من آذاني.
- وكيف ستعرفهم، هل تري لهم طريقًا تسلكه إليهم؟
- لا تقلق لا يغيبون عن نظري فأنا أراهم كلما نظرت إلي المرآة.

ظهرت علامات عدم الفهم علي وجه الزائر لكنه، وفي داخل نفسه علل الأمر بأن المرض النفسي قد تصاحبه العديد من الهلوسات فتجاوز عن ذلك ثم حاول الإطمئنان علي صديقه قائلاً:

- ودواؤك، هل تتناوله بانتظام؟؟
- لم أعد أحتاج إليه
- هل شفيت!!؟

أدار المريض ظهره شطر نافذة الحجرة متأملا في الفضاء أمامه ثم قال:

- لم أكن مريضًا لأشُفي

همس الصديق متمتمًا في سره:

- لن نكرر ذلك الأمر مجددًا.

ثم علا بصوته وقال لصديقه ناصحًا:

- يجب أن تتناول دواءك، علي الأقل تنفيذًا لنصيحة أطبائك.
- لم أتناوله سابقًا.

قالها برد سريع مقتضب وكأن الأمر لا أهمية له، صاعقة أصيب بها الزائر وتساءل في دهشة:

- لم تكن تتناوله؟!!! كيف والأطباء يشرفون علي ذلك بأنفسهم؟!!!

بسخرية رد عليه المريض:

- أعلم، لكن جسدي لم يكن أبدًا ملكًا لأحد غيري.

انقطع الحديث بينهما وسادت لغة من صمت الإنتظار حتي اقترب الزائر من صديقه المريض أجلسه بجواره وقال له:

- أفصح لي عما بداخلك، ألست صديقك؟

لمح دموعًا تتساقط من عين صديقه المريض الذي كان في يوم من الأيام ذا مكانة يحسد عليها فمال تجاهه وحاول أن يحتضنه إلا أن المريض أشاح بوجهه مبتعدًا بنفسه عنه ثم قال بلهجة رغم تناسق كلماتها لكنها خرجت مضطربة:

- في يوم ما استيقظت لأجد نفسي وقد تغيرت كليًا لقد أحاطت نفسها بجدار من اللاشعور، من اللاإحساس.

حاول صديقه أن يتحدث مخففًا عنه لكن المريض أكمل وقال:

- مهلاً لست أنا من فعل ذلك بل هو، قالها وأشار إلي صورته في مرآة موضوعه أمامه يظهر فيها كاملا دون ظل يغطيه أو أجزاء لا تظهر

منه، يتحدث وكأنه قد أصبح شخصين في كيان واحد وما هي إلا لحظات حتي تحول ذلك الهادئ إلي صخر ينحدر في سرعة من أعلي جبل تقذفه سيول عارمة لا قبل لأحد أن يقف أمامها فانقض علي زائره ممسكًا إياه من رقبته، لعابه يسيل ككلب مسعور يهجم علي فريسته يأبي أن يتركها قبل أن ينتزع روحها بأنيابه ومخالبه، تلوي الزائر منتفضًا محاولاً التملص والخلاص بنفسه من تلك القبضة، نظر المريض في عينيه يبرر في تلذذ واستمتاع سبب ما يفعل:

- "آذيتني كأقصي ما يفعل العدو لا الصديق، لقد كنت اقرب الناس إلي، كنت تلميذًا لي، لا تظن أنني لا أعرف، لا تتوهم أنني غافل عن أفعالك، هكذا استمتعت كلما رأيتك مطمئنًا إلي نفسك وأنت لا تعلم بما أدبره لك لتمت الآن، وسأحيا أنا غدًا، الأيام القادمة ملك لي وحدي، أما أنت فلتستمتع بقتلي لك"

انتهي الأمر وفي ثوان معدودة تحول الزائر إلي جثة هامدة لا تتحرك فنهض المريض مرتجفًا من علي ذلك الجثمان، يلهث وهو يحاول أن يملأ رئتيه بهواء نفذ منهما من فرط الإثارة والمجهود، سار في خطوات متثاقلة تجاه نافذة الغرفة في حين أرسي الليل سدوله، فرفع وجهه تجاه النافذة وصعد علي حافتها، مد يديه بمحاذاة جسده كأنه يتأهب إلي تلك اللحظة حين يسقط لكنه متوازن بشكل غريب، يرتجف وبشدة يحرك فمه ويخاطب شخصًا ما قائلاً:

- أعرف أنك غاضب، هذا حقك لكنك حتمًا رأيت ما مررت به في حياتي، رغم خطئي لكنني باق هنا أعرف إلي أي مكان أنتمي فلم يعد بالإمكان أن أرحل الآن، وقت الرجوع قد انتهي وغادرني، والدنيا لم تعد ملاذًا آمنًا لي، أنا الخاطئ الباحث عن توبة أعرف

أنها ليست من نصيبي، اسمح لنفسك أن تتقبلني حين أراك، أما الآن فليس هناك مفر.

عاد إلي سريره، جلس، ثم واصل النظر إلي تلك الجثة الملقاة أمامه متبادلاً النظر بينها وبين الباب، يخاف شيئًا ما أو بالأحري ينتظره ليأتي وبمجرد أن انفتح أمامه حتي قال:

- الآن قد أنهيت مهمتي وأتممت معك اتفاقي، لم يتلق ردًا، توقع أن يحدث ذلك، فصمت، ثم تابع تأمله في تلك الجثة.

obeikan.com

ليلة صيفية هادئة ذات هواء رطب تلمع سماؤها بأضواء تشع من نجوم لامعة تختلط بنور قمر ينير سوادها الحالك ليكشف الطريق أمام تائه لا يعرف مكانًا يأوي إليه، انقسمت تلك الليلة إلي نصفين أحدهما ساكن والآخر ملئ بالصراخ، والفاصل بينهما كان كسر حاجز الصمت حين انشقت سكينتها بصرخات قادمة من أعماق إنسان يتألم، يعاني من لوعة وحزن شديدين، رجل في العقد الثالث من عمره يبكي فتمتزج دموعه بنحيب قد رسم آثار الخوف علي وجهه، انسل بخطوات سريعة غير منتظمة من بين ظلام يسيطر علي تلك الساعات من اليوم، يحمل بين يديه طفلا يتلوي من ألم الإحتراق؛ تلك كانت وستظل أقسي أوجاع الانسان فوجه الصبي قد ذاب حرفيًا ولحمه قد تحول إلي سواد متفحم حتي ليظهر العظم من تحت جلد الوجه الذي أكلته النيران فأخفت ملامح الولد، في لحظات فُتحت أمام الرجل وابنه أبواب المستشفي، لم ينشغل الأطباء بعلاجه لا داعي لذلك فالأمر لم يعد كما كان في الماضي انشغلوا فقط بتسكين ألمه، بمنحه فرصة ليتنفس دون بكاء، ذلك أفضل علاج قد فُرض عليهم منذ وقت طويل، اختاروا ذلك الحل، كان الأمر طواعية، بل الأكثر أنهم طلبوه وبشدة.

ينظر إلي تلك الورقة ويحاول أن يكرر النظر فيها كي يفهم شيئًا من تلك الكلمات المكتوبة عليها، تحمل له الكثير من الغموض والرعب، فحياته أصبحت هي المحك الرئيسي لما حدث وما سوف يحدث وكلما نظر إلي سطورها أصبح كمن ينظر لقعر محيط من الماء العكر لا يري له نهاية فلا يدري إلي أي مدي وصلت حالته، ويقبض بيده علي تلك الورقة يحاول أن يمزقها وكأنه سيمزق المكتوب فيها وينهي عليه، لكنه سرعان ما يدرك عبث ما يفكر فيه فالمكتوب قد حدث بالفعل، ولا سبيل أمامه كي يغير فيه شيئًا لأن الإختيار قد تم والنتيجة أصبحت معروفة وكان هو العينة المنتقاة.

لكن يتبقي أمامه سؤال لا يعرف له إجابة: لِمَ هو بالذات؟

يبدو أنه سوف يظل يطرح علي نفسه ذلك السؤال ويحاول أن يبحث عن إجابة لتريحه ولو لبعض الوقت، لم يعد الموت هو الخوف الأعظم، هناك من الاشياء ما يفوقه بمراحل ودرجات كبيرة بدرجة لا تصدق.

obeikan.com

تلك هي مذكراتي، أنا من منعت نعمة الله علي الأرض، منحت الحياة للبشر، حاربت كثيرًا في سبيلها، فاتضح لي في النهاية أنني لم أحارب إلا نفسي، الموت سنة من سنن الله في الكون، حاولت أن أتفاداه بحياة أبدية فلم أفرق بين صغير كان أم كبير، مريض أو صحيح الجسد، وقف الجميع أمامي سواسية؛ فأنا رب الحياة، لا فرق بينهم في بدايتها لم نرها كلعنة، لم نصنفها كعقاب، لكنها وفي حقيقتها كانت أشد اللعنات التي طالتنا جميعًا، أصبحت كمرض لاعلاج له إلا بالنسيان، أكتب تلك المذكرات بعد أن تخلصنا من تلك اللعنة التي صورت لنا في هيئة نعمة زائفة، أخيرًا سأسترد أنفاسي وأشعر بإنسانيتي، سأنظر إلي الشمس وأخاف أن لا أراها ثانية وسأحمد الله علي كل نفس يخرج من جسدي وأدعوه أن يدخل ثانية؛ فأنا الآن حي، وردت إلي كرامتي كأي انسان يحترم نفسه، قد أموت في أي لحظة.

الإمضاء

Unknown

وجد الفريق البحثي تلك الرسالة في مقدمة مذكرات عثروا عليها في إحدي مواقع التنقيب عن الآثار البيولوجية، وبمجرد أن انتهوا من قراءتها حتي كانت علامات الدهشة قد ارتسمت على وجوههم، دهشة ممزوجة بفضول المعرفة، "سوف نعرضها علي اللجنة"، قالها أحد أعضاء البعثة وقد وافقه الجميع فحملوها وخرجوا متجهين إلي مقرهم بالقرب من نفس الموقع، صعدوا إلي سيارة الأبحاث ليعودوا لمقر البعثة الرئيس، بضع دقائق حتي وصلوا يتلهفون علي قراءة تلك المذكرات.

لحظات وبدأ الاجتماع علي طاولة مخصصة لتلك اللقاءات العلمية المهمة، وضعوا المذكرات أمامهم وتم تكليف أحدهم بأن يقوم بتسجيل الجلسة

بالصوت والصورة، لحفظها كي لا يمحوها الزمن، ثوان مرت ثم وقف الرئيس وقال:

- بعد انتهاء الحرب السابعة الكبري في الألفية الثالثة كانت معظم آثار البشرية قد ضاعت أو تم تدميرها عمدًا فلم يعد للإنسان أي تراث باق، لم نعد نعلم عن أجدادنا شيئًا، كيف عاشوا وكيف ماتوا وكيف سارت بهم الحياة وهنا تكمن أهمية تلك المذكرات وغيرها من آثار وبقايا ومخلفات نجدها فهي كالحجارة التي تكمل بناء الهرم، لنفتح ونقرأ ونتعلم ولنعلم أن الماضي لن يموت مادمنا نبحث عنه دائمًا.

الزمان: ليل يوم الخامس من سبتمبر الموافق2049 .

ركبت سيارتي وفي سرعة انتقلت عبر شوارع القاهرة كي أصل إلي المنزل، اليوم هو الذكري السابعة لزواجي مرت علينا أنا وزوجتي أيام لم نتذوق فيها إلا الحب، حديثنا لم ينقطع أبدا والود لم يفارق بيتنا الذي عشنا فيه، وصلت إلي سكني وكنت قد أرسلت رسالة إليها كي تستعد فترتدي أجمل ما لديها من ملابس لنحتفل بالذكري السنوية لزواجنا.

انتظرتني في الشرفة، وبمجرد أن لمحتني حتي هبطت مرتدية فستانًا متأنقًا جميلاً ذا لون زهري يعطي طابعًا رومانسيًا، أعرف هذا الفستان وكان لدي اليقين بأنها سترتديه لشدة حبي له، لم تكتف بذلك بل وضعت من العطور ما هو محبب إلي نفسي، نظرت لها كأنني أراها لأول مرة.. مازالت بشرتها نضرة جميلة ذات إشراقه تشع جمالا؛ ورغم تقدم العمر بها إلا أن روحها تأبي أن تفارقها تلك الحيوية التي أعشقها، ابتسمت لي ففتحت لها باب السيارة كي تصعد؛ فهي أميرتي، اتخذنا طريقنا لمكان حددناه سويًا منذ أكثر من سبع سنين، أدرت السيارة ..ومعها أدرت تلك الموسيقي الهادئة، نظرت لها فمالت بوجهها خجلاً تهرب بعيونها بعيدًا عني، كانت هي حواء بدلالها وأنا آدم

المفتون بها، مددت يدي، وضعتها علي يدها، ألمسها، فتولد دفئًا ومشاعر لاتوصف، متعة خاصة كنت أجدها في وضع أصابعي بين أصابعها الصغيرة ذات الحجم الدقيق والملمس الناعم، أنتقل إلي دنيا من الأحلام، أسرح فيها بخيالي ما بين طمأنينة وحب وراحة داخلية وغيرها من تلك الأمور العذبة المحببة للنفس، فهناك حب يمزق الروح كلما كان بعيدًا، أما عندما يقترب فتقترب معه الأرواح من الأجساد لتعلن عن كائن لا يري من الدنيا سوي الجميل فيها.

وصلنا إلي مكان احتفالنا، ذلك مطعم أصبحنا معروفين فيه حتي إننا قد وجدنا مديره وقد أعد لنا مفاجأة خاصة، وضع عددًا من البالونات ذات الحجم الضخم وكتب عليها أسمينا مصحوبين بصور طبعها بعد أن انتقاها من ألبوم أعده كهدية من صور العام الماضي، مفاجأة لم تكن متوقعة وابتسامة صافية جميلة ظهرت علي وجه محبوبتي، نظرت لها، وطبعت علي شفتيها قبلة سريعة اختلستها دون أن يلحظنا أحد ثم دخلنا لنكمل ما بدأناه سويًا منذ سبع سنين.

وقفنا لنرقص، شعر الجميع وكأن الليلة هي ليلتنا وحدنا؛ فتعاونوا معنا، رأيت في عيونهم محبة، فهام الحاضرون عشقًا تأثرًا بنا، وقت لاينسي بالفعل، أصبح علامة فارقة في حياتي.

الواحدة بعد منتصف الليل، غادرنا المكان، فتحت لها باب السيارة ونظرت لها كأنني أودعها دون أن أشعر، وجهها أشرق بتلك الابتسامة التي لم أر لها مثيلاً من قبل وعيناها التمعت بشدة، نظرت لها مليًا، تأملتها، أصبت بسحر نظرتها حتي شعرت بحرارة جسدي ترتفع ليحمر وجهي فأظل أنظر إليها لا أشيح بنظري عنها إلا حين استأذنتها لأذهب كي أحضر زجاجة مياه، فعبرت الطريق، لحظات غابت فيها عن عيني، فكانت فاجعة لا توصف**!!** سيارة من الحجم الضخم تقطع الطريق بسرعة جنونية اصطدمت بسيارتي

سحقتها فحولتها لقطعة من الخردة محشور بداخلها لحم فتاتي، للحظات تسمرت في مكاني قبل أن استعيد قدرتي علي الحركة، فأركض تجاه حطام السيارة، ظلت تنظر لي دون أن تنطق، وكلما حاولت أن أحررها كان الألم يتزايد، قد أكون أنانيًا وأنا أجزم بأن ذلك الألم لم يشعر به أحد مثلي فآهاتها مزقتني وحطمت معها أيامي القادمة، والصور المعتادة، سيارة الإسعاف تأتي متأخرة وينفتح باب غرفة العمليات لتدخل فيه دون رجعة، والمحصلة قمر قد انشق إلي نصفين ضاع أحدهما واختفي، بقي الآخر مظلمًا لا يضئ السماء كما اعتاد البشر.

عقلي لم يتحمل مثل ذلك الألم، قد أري الشمس لا تشرق، وقد أري النجوم تتساقط بل وأتقبل ذلك لكنني لم أكن لأستطيع أن أري تلك المرأة تذهب بجسدها إلي مكان آخر، فقد مات الجسد الذي عاشت به روح من الحياة، فأصبحت كمن فقد ذراعية، وسار يحلم أنه يحمل أثقالا دون جدوي، ببساطة ماتت شريكتي في الحياة؛ فتعرضت لدمار نفسي لا يوصف.

أيام ما بعد الحادثة غبت فيها عن الوعي، كانوا يدسون الطعام في فمي يعقبه عدد كبير من المهدئات والأدوية المنومة كي لا أظل علي وضعي الصارخ المطالب بعودة الميت بعد أن دفن في تراب المقبرة، لم أعان الآماً جسدية لكن جراح النفس أشد قسوة وحده.

الزمان: صباح الثلاثين من سبتمبر الموافق2049

استيقظت في ذلك اليوم ومازال عقلي لم يستوعب ما قد حدث سابقًا، أسترجع الأحداث فأجدها تمر أمام عيني كأنها كانت بالأمس القريب، بجواري وجدت والدي وصديقي الدكتور سعيد يتحدثان، لكنهما وبمجرد أن أفقت توقفوا عن الحديث ثم أقترب مني والدي وقبل رأسي وظهرت علي وجهه السعادة والشكر لله برجوعي إلي الوعي، أما سعيد فلم يتمالك نفسه،

انهمرت دموعه، طبعه الهادئ جعله يقف دون حراك، أعرف ما يكنه لي فهو أكثر من أخ لي.

- ماذا حدث؟؟

سؤال معتاد في مثل هذه المواقف

- زوجتك ماتت.

هكذا كان رد سعيد علي سؤالي سريعًا، مقتضبًا، مؤلمًا، قمت أنفض ما هو عالق بي من محاليل طبية، أرفض الواقع لا بل أحاول أن أجعله غير موجود بالأساس فرددت في عنف:

- من قال إنها ماتت؟!!
- ماتت يا حاتم، يجب أن تتقبل تلك الحقيقة.

نظرت إلي والدي منفعلاً وزاد هياجي وأنا الهادئ دائمًا قلت موجهًا حديثي لهما:

- لم تمت وأنا متأكد مما أقول.

أمسك والدي برأسي هزني برفق وقال:

- ماتت، ماتت، ماتت، كررها حتي أستفيق مما أنا فيه لكنني كنت مصممًا علي رأيي فكنت أكرر أنا الآخر أنها لم تمت.

رأيت البكاء في عينيه وظل هكذا وهو يحاول أن يقنعني أن حياة زوجتي أصبحت شيئًا من الماضي، دارت رأسي، تشبع عقلي بأفكار من لا يقبل الموت، هذا العقل مازال معاندًا رافضًا أن يصدق ما يقال عن موت زوجتي، لم يستوعب بعد تلك الفكرة، فأي موت قد يصيب تلك الروح؟؟ لكنه وفي وقت

قصير بدأ يسترجع ما حدث مسبقًا، أحاول ألا أجعله يصدق، لكن الأوان قد فات علي إدراك ذلك.

نهضت من فراشي، وكل تلك الأفكار تستحوذ علي نفسي ثم توجهت إلي خارج تلك الغرفة، إلي أين؟حقيقة لا أعرف لكنني أحتاج أن أتنفس، قبل أن أفتح الباب التفت خلفي ووجهت حديثي إلي أبي وسعيد وقلت لهما:

- عندما أتواجد في أي مكان لا أريد أن أسمع كلمة "موت".
- حاضر يا بني.

قالها محاولاً أن يستوعبني، خرجت تاركًا نفسي مع تيار هادر لا نهاية له أو استقرار في أي مكان، لايهم فأنا أعرف أن لا راحة لروحي بعد الآن.

ظهر يوم الثلاثين من سبتمبر الموافق.2049

بمجرد أن وقفت علي قدمي حتي كانت خطواتي الأولي تجذبني نحو مقبرتها حيث دُفنت، راقدة تحت التراب، منذ فترة قد اعتاد أغلب الناس علي حرق جثث موتاهم في عادة مستمدة من الماضي نظرًا لإمتلاء الأرض بتلك الجثث من جراء الحروب السابقة لكن والدي صمم علي دفنها بالطريقة المعتادة حتي يخلق لي مكانًا أذهب إليه أحادثها فيه كلما بحثت عن الراحة، فأخرج لها ما في قلبي من حديث لا أخرجه لسواها، اتخذت طريقي إلي هناك، وقفت لا أعلم كم من الوقت وقفت لكنني أذكر بشدة أن سلسلة من صور الحياة قد غزت رأسي بتفاصيل أثارت في نفسي الحزن والسعادة في آن واحد فقد فقدت من كانت لي وغدًا لا أعلم كيف سأسير.

توقف كبير الآثاريين عن القراءة بعد أن لمح في عيني واحدة من فريقه دموعًا مكسورة، يعرف السبب، فقد توفي زوجها منذ فترة قصيرة ورغم الألم أصرت علي مواصلة العمل، فحاول أحد الجالسين بجوارها أن يخفف

عنها قليلاً وطأة الحزن، ردت عليه محاولة أن تداري دموعًا لم تخف علي أحد:

- الحزن لا يُنسي مع مرور الزمن، بمجرد أن بدأنا في قراءة تلك الصفحات وأنا أشعر بأن تلك الأوراق تحمل بين طياتها قصة ذات طابع مختلف، لقد وجدنا الكثير من تلك المذكرات، خُدعنا في العديد منها نظرًا لأننا كنا نكتشف تزويرها، أما تلك فأجدها حقيقة حتي وإن كانت فقط في صدق المشاعر التي تنقلها.
- هل نكمل؟

حاول رئيس البعثة أن يعيد الأمور إلي نصابها العلمي دون التطرق إلي مواضيع الشخصية، رد عليه الجميع بالموافقة، فيبدو أن تلك المذكرات قد جذبتهم وأثارت فيهم حماسة قد خبت، فأكملوا ما قد بداؤوه من قراءة.

المكان : الجامعة القومية للعلوم الجينية و التحليل

الزمان: صباح الثاني من ديسمبر للعام.2050

"إكسير للحياة وليس للشباب**!"** هكذا قال أحد الطلاب في حواره مع الدكتور سعيد، رأيتهم وأنا قادم من بعيد، طبعًا لم يثر الأمر انتباهي، أصبحت أمشي بقامة منحنية وعيناي تحملان همومًا لا تطاق هكذا قالها لي سعيد عندما رآني، بمجرد أن مررت بجوارهم التقطت أذناي ذلك الحديث الدائر بينهما لكنني وكعادتي بعد الغيبوبة أهملت الأمر وأكتفيت فقط بأن ألقي التحية عليهما دون أن أنتظر ردًا ثم واصلت طريقي.

- وما الفرق؟

تساءل الدكتور سعيد، فرد عليه الطالب:

- الفرق أن الحياة تنتهي ولو أن هناك إكسيرًا لها فلن يكون هناك موت.

بدأت علامات من الضيق المصحوبة بعدم الفهم تظهر علي وجه سعيد الذي قال:

- الموت سنة من سنن الله علي الأرض ومهما بلغ التطور الذي قد يعيشه الانسان لكنه لن يغير تلك الحقيقة أبدًا.

لمحت بطرف عيني سعيدًا يترك طالبه ويهرع خلفي لكنني كعادتي كنت وبمجرد أن أدخل أقوم بإغلاق الباب ورائي، أريد أن أختفي عن الأنظار وأبتعد عن البشر.

طرق الباب ودخل، اقتحم عزلتي وأخرجني منها عنوة، سلم علي وكعادته بدأ في الحديث مباشرة:

- ألن تستيقظ؟

لم أرد عليه إلا أنه تابع حديثه قائلاً:

- الحياة لن تنتهي، ستسير وأنت يجب أن تواصل حتي تستطيع أن تعيش، بتلك الحالة ستموت ببطء.
- أتمني الموت فالحياة قد جار عليها الملل.

وضع سعيد إحدي كفيه علي فمي كي لا أتكلم ثم قال لي:

- لا تيأس أو تتشاءم فعلي الأقل حاول أن تكمل ما أوصتك به؛ عملك وحياتك.

نظرت له دون رد وتركته ذاهبًا بعقلي إلي مكان لم أحدده بعد، ذلك حوار قصير معتاد دار بيني وبين سعيد، صديقي وأخي والمقرب لي منذ كنا طلابًا ثم بدأ يقص علي مسامعي حديثه عن إكسير للحياة مع أحد الطلاب، لم أنتبه له ولكنني لم أرغب في إحراجه ليتوقف عن الحديث فاستمعت له بأذن لا تنصت حتي انتهي، ثم استأذنته في الانصراف.

سرت حتي وصلت إلي المنزل، أخلع ملابسي وأضع رأسي علي وسادة الراحة لأغيب في عالم لا خروج منه سوي حين يتذكر أحد ما أنني مازلت جزءًا من هذا العالم فيوقظني، وغالبًا لا يكون سوي سعيد، هذا الأحمق القصير لا أتخيل العالم دون جنونه في الصباح يتحدث معي عن إكسير للحياة، والآن يهاتفني ليلعن تلك الفكرة ويعلن رفضه لها وفي كلتا الحالتين ليس أمامي سوي أن أوافقه الرأي لا أمتلك في جسدي أنفاسًا كي أتكئ عليها لأجادله أو حتي أتناقش معه في تلك الفكرة، فتصبح الموافقة حاضرة حتي لو قال لي إن الشمس تدور حول الا رض وليس العكس.

طلبت وقتًا مستقطعًا آخر من الحياة أغيب فيها عن الوعي بكامل إرادتي فأتناول من الادوية ما يجعل ذهني لا يري من الدنيا سوي العدم، استيقظت في ظلام دامس، اعتقدت معه أنني قد فقدت بصري فقمت أتحسس خطاي، أتلمس طريقًا إلي مصدر ضوء لأطمئن معه، خطوات بسيطة حتي وصلت إلي نافذتي فأنظر من خلالها إلي العالم، الأنوار لم تنطفئ إلا في سكني، أما في الخارج فالحياة تدور كما هي، عدت إلي مكتبي وقد وجدت تلك الظلمة طريقًا إلي قلبي ففضلتها علي سواها، أضأت شمعة صغيرة وأخرجت قلمًا وبعضًا من ورق أبيض، لا أعرف ما سأفعل، حقيقة لا أعرف، لكنها فكرتي الدائمة عن الحياة، حاولت تفريغ طاقتي فبدأت في كتابة ما لم أجد له تعريفًا، كلمات سعيد عن حياة أبدية حفزت في نفسي أن أبتكر تلك الفكرة التي دائمًا ما طرقت رأسي فحولتها إلي حبر علي ورق وشرعت أكتب:

(منذ زمن سحيق سكن آدم الجنة، ينعم بخيراتها، استمع لوسوسة الشيطان، طريق الهلاك مفروش بالنوايا الحسنة، كانت نيته الخلود رغم أنه في جنة الخلد، والشيطان يلبس مسوح الواعظين ويتحدث إليه ناصحًا:

- يا آدم هل أدلك علي شجرة الخلد وملك لا يفني.

نسي آدم نصائح ربه واسترسل في الحديث مع تلك الأفعي تحرك رأسها فقط أما الصوت فيأتي من لا مكان.

- لكنها من المحرمات علينا.

دوي صوت يرتفع في المكان بسخرية لا تخطؤها الأذن ثم قال:

- حرمها عليك لأنه لن يقبل بخلودك، لن يقبل أن تنازعه علي المُلك .
- لكنني من خلقه وصنيعته ...
- وأنا أيضًا من صُنعه، لكنني أردت أن أكون ملكًا علي نفسي لا مملوكًا لأحد آخر .
- إنه الله !!
- أعلم أنه الله وأعلم أنه بث فينا من روحه، بعثنا لنكون عبيدًا له لا لننازعه علي العرش، ألم يخطر ببالك أن تتساءل: لم منع عنك تلك الشجرة؟! لم تُخلق لتكون حرًا بل عبدًا أصطفاه لنفسه لتنفذ فقط أوامره.

تأمل آدم ذلك الصوت القادم إليه، يبحث عن مصدره يتفكر كلماته ولا يري من الحقيقة شيئًا، اقترب رويدًا رويدًا من تلك الشجرة، كانت نفسه تعافها بأمرٍ من خالقه، أما الآن فطيب رائحتها عبق أنفه حتي لم يعد يري سواها،

خطواته بدأت بطيئة ثم سريعة فمتعجلة، والصوت يعود من جديد ليصدح مجددًا، خلِد روحك واجعل من نفسك إلهًا لا يؤمر، أنت فانٍ ولن تكون سوي ذلك مهما بذلت له من عبادة، ارتق لتجلس بجواره فقد تزيحه وتحل محله، الصوت يتكرر وكلما تردد آدم وشعر برغبة في التراجع كلما زادت تلك الكلمات عمقًا وقوة، لتكن خالدًا وأكون خادمك المطيع وعبدك الناسك بين يديك، أنت لن تصدق إلا إذا جربت بنفسك، الوسوسة تستمر وآدم يحاول أن يقاوم، أن ينأي بنفسه عن زفير نجس لا يخرج سوي من شيطان رجيم، لكن روحه كانت قد سقطت في تلك البئر، توغل الشيطان بداخلها، أغرقها في الوحل حتي صارت سوداء كسواد غراب سيراه نسله فيما بعد، مع آخر تلك الكلمات قطف آدم أولي ثمار معصيته، طلب الديمومة والبقاء، أراد أن يرتمي في أحضان الخلود، أن يبحث عنه في جنة لا يدخلها سوي المخلدين، فأُهبط إلي الأرض مكلومًا محزونًا في شقاء لا ينتهي أبدًا. عصي ربه، طلب الغفران، سار إلي طريقه دون أن يتوخي الحذر وكان البشر هم النتيجة.

ارتكب أبناؤه ألوانًا من العصيان فقتلوا وسرقوا وزنوا، لكنهم أبدًا لم ينسوا سبب خروج أبيهم من الجنة، فظلوا هم أيضًا يطلبون الخلود، عوقبوا كثيرًا حتي كان التيه مصيرًا لهم في أرض قاحلة، عاصين نبيهم موسي، لم ينسوا الخلود أبدًا فعادوا يلحون في طلبه مرارًا وتكرارًا:

أصاب المرض"تانيا"وأصبح جسدها نحيلاً يعاني من السقم والوهن.

- ما السبب في ذلك يا "سمعان"؟!!
- حتي الآن لا نعرف سببًا لعلتها، اقترب موعد عرسها، وباركها "النبي" وأفاض عليها بالدعاء.

"لم نعرف يومًا بركة تأتي بمرض يا أخي"، قالها "داود" وقد ذكرته تلك الأحداث بما وقع لولده منذ عام مضي تقريبًا، حيث تفاجأ الجميع بمرضه وانتهي الأمر بموته، ثم عاد ووجه حديثه إلي سمعان قائلاً:

- يبدو يا صديقي أننا لم نعد من مختاري الرب.
- لا تقل ذلك يا "داود"، أتكفر بما أنزل علينا، النبي يقوم بما في وسعه أن يفعل، يناجي ربه ويدعو لنا، هكذا أراه دائمًا.

بابتسامة ساخرة رد عليه داود وقال:

- أي دعوة هذه التي تتحدث عنها، نحن نموت يا "سمعان" ليس هذا فحسب بل نعذب قبلها ويمزق ألم الفراق أفئدتنا.

نظر"سمعان" إلي الفضاء المتسع أمامه، إلي أفق لا نهاية له، تلك الصحراء التي لم يؤذن لهم بعد أن يبلغوا نهايتها ثم قال في تبتل ورجاء:

- سيدعو لها بالشفاء، وأثق أنه سيفعل، وغدًا سوف نذهب إلي النبي لأطلب منه البركات ليس لابنتي فقط بل للبيت بأكلمه.

ظل سابحًا في تأملاته حتي تناهت إلي مسامعه صرخات يعرف مصدرها، إنها زوجته "ميهيرا" تبكي وتنتحب بشدة، عرف ما الخبر وأيقن الأمر ماتت "باتيا"؛ انتفض وهرع بسرعة، خطواته المتعثرة اختلطت فيها دموعه مع رمال غطت كامل وجهه كلما سقط علي الأرض منكفئاً علي وجهه، يتعثر ثم يقف ليهرع من جديد، بمجرد أن وصل إلي باب الدار حتي ارتمت "ميهيرا" في أحضانه، حورية الأمس تحولت لشبح متهالك والبيت سيعاني لأيام قادمة من عذاب ونواح لن ينتهي بسهول).

أغلقت قلمي، نظرت إلي ساعتي لأري الوقت يرفض أن يمر خاصة في تلك اللحظات الحزينة، نظرية النسبية التي تحدثوا عنها كثيرًا تطبق حرفيًا

علي حياتي، في نيتي أن أستكمل ما بدأته من كتابة، لا أعرف لماذا؟ ربما إشباعًا لحاجة نفسية، فالاوجاع تدفعني إلي البحث عن مكان لإخراجها، لم يكن أمامي من سبيل للراحة سوي أن أكتب.

المكان : المكتب الخاص بي في مركز البحوث
الزمان: سبتمبر 2051

مر عامان لأجد نفسي جالسًا خلف مكتبي أستمع لأصوات الطلاب بالخارج يقفون في غير اكتراث إلا بأمور تبدو بالنسبة لأمثالي تافهة، تنبهت أذناي لتلك الخطوات، أعرفها وأحفظ ما سوف يقوم به صاحبها، سيقف قليلاً أمام الباب ليحاول رغم قلقه أن يتظاهر بالهدوء، تقدم ودخل فابتسمت لصدق توقعاتي، وكعادته لم يأخذ وقتًا قبل أن يدخل في صلب الموضوع مباشرة:

- علمت أنك تنوي القيام بتجربة جديدة.

تساءلت محاولاً النفي: أي تجربة؟

- تفهم ما أقصد، أكسير الحياة.

حاولت أن أتملص منه فوجهت له سؤالا لأشتته قليلاً بعيدًا عن الموضوع:

- من أخبرك؟
- ليس هناك ما يخفي.
- وهل يعرف أحد غيرك بذلك الأمر؟
- أنا وأنت ومن كان تلميذي حتي أصبح تلميذك.
- إذن ما المشكلة؟
- المشكلة أنك رفضتها والآن تقبلها، أطلب منك تفسيرًا لذلك الأمر.
- سأقضي علي الموت.

عبارتي تلك حملت فيها من الذهول ما جعل سعيدًا يصمت قليلاً قبل أن يتكلم ثانية ويقول متسائلاً:

- وما هو الموت؟

هكذا تساءل وهو يحاول أن يدخل إلي عقلي ويتجول في خيالاتي ليفهم ما أُخطط له.

نظرت له قليلاً ثم حادثته قائلاً :

- أنه الكائن المتسلل من بين الأحراش القادم من أشد الأماكن ظلمة، والعائد إليها من جديد مصطحبًا معه من ينتقي من ضحاياه في غير عناية، كائن يحمل من الارادة والتصميم ما يهدم به الجبال؛ فتجاربه في السابق لم تفشل ولن تفشل في المستقبل، دائمًا ما ينتزع منا أجزاء من سنين العمر ويترك لنا فقط الذكريات لنحلم بها

بدت علي وجه سعيد علامات الدهشة من ذلك الحديث قبل أن يقول:

- بهذا الطريق ستصل إلي حد الإلحاد، فالله قال لنا عن الموت.
- وبأي أفكار تؤمن يا دكتور؟

تفاجأ بذلك السؤال إلا أنه حاول أن يتماسك يبدو هادئًا ولو ظاهريًا فقال:

- أؤمن أن الله خالق، والموت أحد مخلوقاته.
- وهل يسبب الخالق أذي لمخلوقاته كما فعل معي؟
- هي إرادته

ابتسمت في هدوء، حاولت أن أتواضع وأخشع لكني قلبي لم يكن ذا هوي يميل إلي التصديق في تلك الكلمات التي يخبرني بها، أراها ترهات لا طائل

منها، إن كان الخالق ذا وجود لم لا يخبرنا عن نفسه، إن كان قد خلقنا لما يؤذينا، أي أب ذلك الذي يكسر ذراع ابنه معللاً الأمر بأنه يحاول أن يعوده علي الألم، لم اختصنا نحن البشر بتلك الاحاسيس؟ وبخاصة إحساس الخوف منه؟!، رددت عليه وقد كنت مازلت متمسكًا بتلابيب الهدوء و السكينة :

- ولكنني لا أستطيع أن أحيا مستسلمًا لتلك الإرادة والرغبات.

ثم أردفت قائلاً:

- أنا لا أريد سوي أن أعدل المسار يجب أن نعود إلي تلك الحالة الأولي من الخلود كما كان آدم في السابق ينعم بها.

يبدو أنه مازال لم يفهم كلامي بعد فرد قائلاً :

- أنت لا تحاول.

استمعت إليه ولم أرد، يبدو أن الحوار سوف يتحول إلي خط سكك حديدية ذي قضيبين متوازيين لا التقاء بينهما.. فقد فهم سعيد أنني مصمم علي خطواتي لكن الوغد لا يرفع الراية البيضاء، يحارب كساموراي لا يستسلم إلا بخروج أنفاسه الأخيرة فقال:

- حاتم! أنت لي أكثر من صديق، أنت أخي، أعرف ما مررت به، تلك لحظات كانت كفيلة بأن تقضي عليك، لقد حققت رقمًا قياسيًا في ساعات البكاء، ليس هناك من ملجأ سوي اللهِ.

حاولت أن أقاطعه فردني قائلاً:

- اسمعني: العلم ليس ضد الدين، ولكن تفكيرك هذا كفر بكل قيم إنسانية قبل أن تكون دينية.

قاطعته قائلاً في حدة:

- تبًا لجميع القيم، لم أعد أؤمن بشئ منها، إيماني فقط بأن الله لو أراد أن يفعل لفعل، لكنه لن يحرك ساكنًا أمام الألم وعذاباته تمامًا كما حدث مع آدم من قبل حين تركه كطفل وحيد يخضع ويستجيب إلي وسوسة الشيطان فلا هو أنقذه أو حتي منع عنه كيد ابليس، ثم عاد مكررًا أفعاله من جديد و تخليه عنا والضحية كانت هابيل عبده المسكين الأواب والباحث عن رضائه، لكنه أهمل وجوده ثم تركه ليموت تحت وقع ضربات قابيل.

ثم بانفعال متزايد ولعاب يتطاير بشدة وأنفاس متهدجة وصوت يقترب من الصراخ أردفت قائلاً:

- ما الضير في أن نسلك طريقًا نبتعد به عن كوننا أفراد قطيع الجاموس الخاضع دائمًا لشهوات لبوءة ترقد أسفل زوج يقتات من صيدها منهم، حياة زوجتي تنتهي أمام عيني، أفقد روحي، لو شعرت بما أنا فيه لن تجادل معي، لو علمت بما في داخلي من ألم وحزن ستساعدني بدلاً من منعي، انتهي نصفي الثاني وروحي ضاعت، إذن ما الحل؟ إذا لم يكن هناك موت فأهلا بالحياة الأبدية، علي الأقل سأحاول إنقاذ البشر من ألم فراق الموت.

في وجوم نظر لي دون رد، صمت للحظات قبل أن يقول :

- تمكن الشيطان منك يا صديقي.

فرددت عليه وعلي وجهي ابتسامة ساخرة :

- دائمًا ما نُلبس بالشيطان تلك الأفعال التي لا نقبلها.

ثم اقتربت منه ناظرًا إلي عينيه وقلت له:

- يقيني يحدثني بأن الخلود هو آية، وأن آدم لو لم يكن يرغب فيه لما استمع أبدًا إلي وسوسة شيطانه، لقد بات وحيدًا مستسلمًا راغبًا في الديمومة.

بانفعال قال :

- لا أدري مع أي مسخ أتحدث وأي شيطان يكبلك بأغلاله، وقبل أن يكمل قاطعته قائلاً:
- صديقي!! مجددًا تتحدث عن شيطان يملؤ روحي العصية، بل تحاول أن تطلق صفات بالغة السوء علي هذا الكائن، أيكون جزاء رفضه أن يركع أن يبقي مطرودًا أو مقهورًا لكن ويا للعجب فقد رفض أن يستسلم، عاد قويًا باحثًا عن ذاته، وأنا أفعل مثله، أحارب الموت، أصبحت ندًا له وقريبًا سأنال منه، وأُنهي وجوده إلي الأبد، هناك من المعجزات ما تأخر تحقيقه وأزعم أنني قادر علي فعل معجزة للكون بأسره.

أتحدث في هدوء بينما تمتلؤ عيناه بدموع أخمن سببها؛ يراني مجنونًا، عقلي قد نفذ فيه سم العبقرية المميت ويعرف أنني لن أتراجع وسأظل مصممًا علي رأيي، فاستأذنني في الانصراف ثم توقف علي الباب، وقال لي بنبرة بائسة فيها بعض من الإشفاق:

- أتعلم عاقبة ما تفكر فيه؟ عاقبة أن لا يكون هناك موت؟ لا ثواب أو عقاب؟ إنك بذلك تهدم كعبة البشرية بل والحقيقة الوحيدة في حياتهم، ستعطي للبشر سلاحًا لن يكفوا عن استخدامه، حين يفوت الاوان لن تجد سبيلاً لردعهم، وحينها ستكون أنت الضحية، راجع نفسك قبل

أن تراجع أفكارك، تلك نصيحتي لك أما شيطانك فلا أجد له سلاحًا أواجهه به.

صمت قبل أن يردف مجددًا بالقول:

- أنت تفكر في أن تحقق الخيال رغم أنك علي يقين من استحالة تحقيقه، فرددت عليه متشبثًا بذاتي:
- من قال أن المستحيل أمر يصعب تحقيقه؟! فالتاريخ يحدثنا عن داود ذلك الذي خرق درع جالوت وأطاح به صريعًا.

استمع إلي في صمت، انصرف فهرعت خلفه، حاولت أن أستوقفه فهو صديقي الأول ويبدو أنه سيكون الأخير، بعد معاناة لإيقافه استجاب لي فوقف متأملاً، قلت له:

- أدعوك اليوم لزيارتي لأشرح لك رؤيتي لتلك الفكرة.

رفض وبشدة، لكنني تمسكت بأن يأتي مُذكرًا إياه بما بيننا من صداقة وود وبالفعل وافق لكن علي مضض، مر اليوم سريعًا حتي حان موعد الزيارة فرأيته يقف أمام بابي في موعد أصر علي أن يحدده بنفسه، بمجرد أن فتحت الباب حتي وجدت في عينيه نظرة أعلمها أشفقت عليه منها، الجهل بالشيء يجعل منك عدوًا له وهو ليس بجاهل فقط بل غيرمستوعب تمامًا لما أقوله،... اقتربت منه ثم جذبته من يده فانقاد خلفي، أدخلته إلي غرفة عملي وأبحاثي، دائمًا ما أجعلها مظلمة كلما خرجت منها وحتي عندما أدخل إليها لا أستعمل ضوءًا سوي في مكان البحث كي أركز فيه، طلبت منه أن يبحث عن مفتاح الإنارة ليضئ المكان، وقد قصدت من ذلك أن أجعله مهيئًا نفسيًا ليتقبل الشرح العملي لفكرتي، بمجرد أن أضاءها حتي بادرني بالقول:

- سمعت عن غرفة عملك كثيرًا ورغم صداقتنا الطويلة لم تكن تسمح لأحد أن يدخلها أبدًا حتي أنا، فرددت عليه:
- ها أنت تقف فيها لأقنعك بفكرتي و بوجهة نظري لا لتفعل أنت ذلك.

قلتها ثم أزحت ستارًا موجودًا خلفه سبورة أبحاثي حيث كنت أميل لتلك الطريقة الكلاسيكية في البحث والتسجيل، بمجرد أن رآها حتي انجذب تلقائيًا إليها، ثم أخرج نظارته الطبيه وبدأ في قراءة المكتوب عليها، ومع كل حرف كانت تتسع عيناه اندهاشًا، أوقفته ودعوته لأن يجلس كي أشرح له بنفسي قائلاً له:

- تعلم أن جسد الانسان معجزة طبية في حد ذاتها!..
- أعلم ذلك.

أردفت:

- هذا الجسد يحتوي علي ملايين الملايين من الخلايا.
- تلك معلومة لا تخفي علي أي شخص حتي الطلاب المبتدئين.
- سأشرح لك بصورة مبسطة وسهلة، بما أن الخلايا تقوم بعملية "انتحار جماعي Programmed Cell Death"، وذلك بصورة آلية مبرمجة للقضاء علي الضعيف منها، وتلك عملية حيوية قائمة منذ أن بدأ الخلق، يأتي هنا دور العلم، لن نفعل شيئًا سوي أن نساعد في تلك العملية، بمعني آخر أن نسرع معدل الانتحار كي نحاول أن نقضي بصورة أسرع وأقوي علي الخلايا الحاملة للمرض، أن نعطي الفرصة للخلايا القوية الراغبة في النمو في أن تستمر وتبقي بصورة متوالية.

- هل تقصد أن نقوم بعملية تسريع كلي لانتحار الخلايا الضعيفة لتبقي الخلايا القوية منها فقط؟؟
- بالضبط، بمثال بسيط إذا كان عدد الخلايا المنتحرة في الثانية الواحدة مليونًا يجب أن نجعلها تزيد، أستهدف أولاً أن تصل زيادتها إلي مليار خليه قابله للانتحار في كل ثانية، وذلك فقط كبداية وأنا أعتبره الحد الأدني، ومع زيادة الانتحار وتكراره تتجدد الخلايا باستمرار مما يضمن لنا الحياة الا بدية.

صمت قليلاً ثم تساءل عن الكيفية والهدف

- مازالت أبحث عن طريق لأصل إلي هذا العدد المستهدف، فلم أحدد تلك الكيفية بعد، أما الهدف فهي القضاء علي الموت تمامًا، حتي إننا قد يأتي علينا يوم نتحدث عنه كشئ من الماضي العتيق، كمرض وانتهي ذكره، وذلك كغيره مثل الملاريا وأمثالها من تلك الأمراض التي أنتهت رغم ماعاناه الإنسان من قسوة بدايتها عندما ظهرت.
- إذن في حال تمت تلك التجربة بنجاح فأنا أتوقع أن تستمر الحياة، يستمر الشباب أو علي أقل تقدير تتحول الآلام الدائمة إلي وقتية تستمر لفترة بسيطة للغاية، أليس كذلك؟
- أعتقد ذلك

فاجأني اللعين بذلك السؤال الذي لم أفكر فيه أبدًا، حتي إنني لم أقتنع بما قدمته من إجابة فتحايلت علي نفسي، وأقنعتها بأن مثل تلك الأمور لن تظهر الآن، وربما بعد مرور فترة أكون حينها قد عدلت الأمر، رغم محاولاتي لإقناعه لكنه لم يقتنع، فقال لي:

- أنت مخطئ فيما تريد أن تفعل، نصيحتي الأخيرة لك، لتتراجع عن تلك التجربة، النفق لن ينتهي أبدًا فلا تصدق خيالك، ليس هناك ضوء في نهاية الطريق، أوهامك خداعة وعيناك لا تبصر المجهول، حتي إن نجحت فعواقبها ستكون صعبة عليك أنت أولا.

قالها ببساطة و هدوء ثم غادر.

مجددًا يتوقف كبير الأثاريين عن القراءة أغلق المذكرات أمامه ليعطي لنفسه ولزملائه راحة لعقولهم، خرج وحيدًا أشعل سيجارته ونفث دخانها فوجئ بواحدة من طاقمه تلحق به، دليا إحدي مساعديه، حيته فحياها وتبادلا الحديث سويًا، اعتاد أن تلحق به كلما حاول أن يرتاح فهي لا تهدأ، أسئلتها لا تنتهي، وهو سعيد بأفكارها، نظرت له وقالت:

- الأمر مختلف.
- طبعًا، الأمر شديد الغرابة، لم أقرأ مثله من قبل.
- وهل أنت واثق مما تقرأ؟
- حقيقة لم أعد أعرف، ليس أمامنا سوي أن ننتظر لننال مكافأة الصابرين.

حين تتصارع الذئاب لا تتذكر سوي شئ واحد، رائحة الدماء وطعم اللحم النيئ، فقد نشب التحدي بيننا نحن الصديقين فأصبحنا غريمين في العلم وأصدقاء في الحياة، فأمام بناية طويلة تحوي بداخلها الهيئة العلمية لشئون الأبحاث كما كُتب علي بابها، علمت بذهاب سعيد، تخطي درجات سلمها الرخامي البارد حتي وصل إلي المدخل، نظر إلي ساعته فعلم أنه وصل في الموعد المحدد لم يكن متاحًا له أن يتأخر وإلا ضاعت عليه تلك المقابلة التي صارع ليحصل عليها.

- الدكتور" عبد الحميد سنن "موجود؟
- هل هناك ميعاد سابق معه؟
- نعم، الدكتور سعيد حسن من مركز الأبحاث.
- تفضل يا دكتور.

لحظات وأُذن له أن يدخل، لم يلتق بالدكتور عبدالحميد سنن منذ أن كان طالبًا فلقاؤه صعب المنال حتي علي أمثاله، إلا أنه قد ذكر أن الأمر شديد الأهمية كي يستطيع الحصول علي هذا الموعد.

لم تتغير هيئته منذ أن كان يُدرس في الجامعة قبل أن يترقي في المناصب، بشرته السمراء وأنفه المدبب للأمام مرتديًا عويناته الدقيقة وجسده النحيف الذي امتلأ نوعًا ما وتلك النظرات المتفحصة والباحثة عن شئ ما في عيون من يتحدث معهم.

- تفضل يا سعيد.
- شكرًا يا دكتور.
- ما الأمر، وباختصار إذا سمحت؟
- الدكتور حاتم.
- ما المشكلة؟
- مر منذ فترة بصعوبات في حياته...توفيت زوجته ولم يستطع أن ينسي.
- ثم؟!
- يقوم بعمل بعض التجارب علي الموت.
- لا أفهم، وضح أكثر لو سمحت.
- يعني... يحاول محاربة الموت.

- يا دكتور أي دواء نحارب به الموت لكي يتمكن الانسان أن يعيش أطول فترة ممكنة.

قالها بانفعال من يري وقته يضيع في تفاهات حتي أنه قد هم بالنهوض لينهي المقابلة.

- أقصد أنه سيقضي علي الموت تمامًا، لن يكتفي فقط بمحاربته.

نظر له الدكتور عبدالحميد في عدم تصديق، فلقد وصل إلي درجات عليا من العلم لكن لم يخطر بباله مثل تلك الفكرة، أي شيطان يعبث في عقل هذا الرجل، وأي تجارب مر بها ليصل إلي تلك المرحلة من التفكير... فعاد ليجلس ثانية كي يستمع إلي باقي الحديث، حاول أن يخبئ ما في جعبته فرد ببرود:

- يمكنك أن تغادر الآن، وتترك لي ذلك الأمر.

فغادر سعيد دون أن ينطق بكلمة إضافية ... لقد ظل تشابك الخيوط علي حاله كما هو دون أن يظهر لها نهاية؛ فالأيام القادمة قد تحمل للجميع مفاجآت لا تنتهي.

الزمان: التاسعة من صباح يوم 13 أكتوبر.2051

إنها التاسعة صباحًا، استيقظت باكرًا أو بالأحري لم يغمض لي جفن وذلك كعادتي منذ أن وطأت قدماي أرض هذا المعمل واتخذته موطنًا لي لأجري تجاربي التي كانت سرية، كثيرًا ما فقدت الوعي من كثرة العمل حتي جاءت لحظة انتظرت فيها الحقيقة لتظهر أمامي كسلسلة جبال تصغر الأشياء تحت سفوحها، اليوم هو يوم التجربة واليقين، لا أعرف أي إحساس ينتابني كلما تحدثت إلي نفسي بذلك الأمر، كيف خطرت ببالي تلك الفكرة؟ كيف طاوعني

عقلي عليها؟؟ لا أعلم، لكن يبدو أنني أصبحت لا أفهم نفسي وكيف أفهمها وأنا لا أعرفها، الانسان عدو ما يجهل، فهل أصبحت في عداوة مع "أنا"، لن أستسلم لتلك التساؤلات سأذهب إلي المختبر كي أبدأ مع فريقي تجربتي التي ظللت أعمل عليها لفترة ليست بالقصيرة.

هناك من التاريخ لحظات حاسمة تبقي خالدة أبد الدهر، لحظات نبحث عن تكرارها دائمًا لنشعر بما مر بنا من فخر وزهو بنجاح طال انتظاره، توجهت سريعًا إلي المعمل فوجدت فريقي قد سبقني إلي هناك وبدأت الاستعدادت تجري علي قدم وساق لأداء تجربة أخيرة نأمل أن تكون ناجحة.

ناديت من مكبر للصوت:

- هل الجميع مستعدون للوصول؟

ندائي كان مختلطًا بحزم يشوبه القلق فخيالات الفشل تتراقص أمامي، ومجهود قد يضيع بين لحظة وأخري، فرد الجميع في إيجاب:

- الجميع مستعدون.

بدأت تدور الآت المعمل وأصبحت العينة المختارة من الخلايا علي وشك أن تتعرض للحقن وصوت الكتروني يخرج قائلاً:

"بدأت عملية حقن الخلايا"، تبعتها لحظات من الصمت.

"الخلايا تتمدد بانتظام" ... لحظات أخري من الصمت، وعيناي لا تجفلان تراقبان شاشة الحاسوب في حذر وخوف.

"الخلايا تستجيب للحقن"، قالها الصوت من جديد وظهرت إشارات تدل علي تعالٍ مضطرد ومستمر، فبدأت تدريجيًا في تنفس الصعداء، يبدو أن هناك حلمًا علي وشك أن يتحقق.

ما بين لحظة وأخري تتبدل الأصوات التي ستعلن نجاح التجربة لتحل محلها أصوات تنذر بكارثة، فالأرقام تتهاوي في سرعة فائقة وتراجع ملحوظ في مؤشر النتائج حتي عم التوتر المكان وارتبك الجميع شعرت بأن السفينة علي وشك أن تغرق، مرت أمامي تلك الثواني كساعات، رأيت فيها زوجتي تنظر إلي بعينين دامعتين تعاني من ألم الاحتضار وتلفظ أنفاسها الاخيرة ..الفشل يطرق بابي من جديد توترت بشدة، قمت بتكسير شئ في يدي، لم أهتم به، أخيرًا عادت أنفاس الحياة إلي جسدي في تلك المرة، فدائمًا للقدر رأي آخر، عاد المؤشر قافزًا عاليا كي تعلن أخيرًا وبعد طول انتظارعن نجاح طال انتظاره: "تجربة أكسير الحياة"، ظللت أتنفس بقوة وأبكي وأحتضن من أمامي، لست وحدي من فعل ذلك، بل جميع من كان موجودًا، ثم هرعت بأقصي ما أستطيع من قوة حتي خيل إلي أنني أصبحت عداءًا في الاولمبياد... عيناي لم تلمعا بتلك الطريقة منذ فترة طويلة، ولعابي سال علي وجهي من فرط المفاجاة فأحاول أن أقطع الممر الطويل من المعمل حتي مكتب مدير مركز الأبحاث في سرعة لأعلن له ما لدي من اكتشاف.

وصلت إلي مكتب الدكتور عبدالحميد، أخبرته في لهفة فنظر لي في ريبة دون تصديق ثم أصابني بخيبة أمل كبيرة حين أتهمني بالكذب أمام الجميع، فأخرجت تلك المادة المنشطة للحياة، المحافظة عليها، سكبتها كاملة في فمي انتظرت قليلا ثم ألتقطت سكينًا مخصصًا لقطع الأوراق، كان مدببًا وكأنه قد جُهز سابقًا، فقطعت بها شراييني، لم نختبر ذلك المصل علي البشر من قبل، لكن ذلك أفضل فإذا عشت أكون قد وصلت إلي المجد وحققت طموحي وإن مت أكن قد تخلصت من عاري، أعلم أنهم حاولوا أن يمنعوني لكن قوتي وغيظي كانا أقوي، مما زاد من عمق الجرح والنزف، وكأن دمائي كانت

مسجونة وحان وقت تحررها، فانفجرت في قوة حتي غبت عن الوعي لفترة كأي إنسان يفقد دمه، الأمر لم يتجاوز ساعتين حتي استيقظت وعلمت أن المصل قد نجح، عرفت بذلك حين رأيت ابتسامة مرسومة علي وجوه من حولي من فريقي ممكن اعتنوا بي.

غادرت المستشفي، توجهت إلي منزلي، لم أعرف نجاحًا مماثلاً لما حدث اليوم، فصممت رغم ألمي علي أن أبيت في منزلي لأستريح من عناء أيام سابقة في أبحاث ودراسات... ومن قبلها معاناة نفسية لا تحتمل، بمجرد أن دخلت وأصبحت بمفردي قمت بنزع ملابسي، وضعت نفسي تحت الماء حتي أزيل عن رأسي ما قد ألم بها من تفكير بدأ ولم ينته منذ فترة طويلة، خرجت من الحمام وفي رأسي ملايين الأفكار المتجمعة تأبي أن تغادرها إلا علي شكل كلمات، فاتجهت سريعًا إلي حجرة مكتبي وفي داخلي رغبة في الكتابة، أعرف دائمًا ما سوف أكتب، أخرجت ذات القلم ونفس الأوراق ثم شرعت في قراءة ما قد كتبت من قبل وما إن انتهيت حتي بدأت في استكمال ما كتبته سابقًا:

(شهر كامل مر علي وفاة "باتيا" و "ميهيرا" لا ينقطع بكاؤها أبدًا ودموعها لا تفارق خديها، حتي رسمت عليها أخدودين من كثرة الدموع، نظر لها "سمعان" في إشفاق وقال لها متوسلاً أن تتوقف عن البكاء:

- ستموتين يا "ميهيرا" وبكاؤك لن يُرجع "باتيا" أبدًا.

فنظرت له في بلاهة من لا تفقه ما يقول، عاودت البكاء من جديد، يقترب منها ويلتصق بجسدها عسي أن يبث من جسده أي دفئ إليها، لكن هيهات فهو نفسه يعاني من ذات الأوجاع المكتومة، لثم جبينها وأراح رأسها علي صدره، في قرارة نفسه أصبح يعلم ما سوف يقوم به.

صباح اليوم التالي:

ذهب "سمعان" إلي جاره "داود"، بمجرد أن فتح الباب ألقي عليه عبارة واحدة:

- يجب أن لا نموت.
- لقد أخبرتك بذلك من قبل.
- إذن لنذهب إلي النبي ونطلب منه أن يمنحنا الحياة الخالدة.
- أجل نفعل...

خرجا سويًا، صعدا إلي النبي حتي وصلا إلي عريشه الذي اتخذه مقامًا له، فرحب بهما وطلب منهما الجلوس ليعرف سبب الحضور.

بادره "داود" قائلاً :

- نحن شعبك المختار وهدية الله للأرض فكيف نموت؟

نظر لهما "النبي" بدهشة وقال:

- وكيف لا تموتون؟!!
- اجعل لنا دوام الحياة، نركع لك أبد الدهر ولا نعصي لك أمرًا.

قالها وكأنه يعرض عليه ما لا يمكن رفضه.

- ليست مقايضة يا "داود"، ولست أنا المقصود من العبادة، فأنا مجرد نبي مكلف ولست إلهًا، أنا مثلكم أؤمر فأطيع.
- إذن نؤلهك علينا.
- وإلي من توجهون السؤال؟

obeikan.com

ظهر عدم الفهم علي "داود" وسمعان فكرر سؤاله بصورة أكثر وضوحًا وقال:

- إلي من تتجهون لتطلبوا الأبدية؟

فرد "سمعان" سريعًا:

- من ربك...
- أوليس ربي هو ربكم؟
- بلي.
- إذن لتركعوا له ولا تعصوا له أمرًا.
- نركع لك وتضمن لنا الأبدية؟

سأكررها ثانية لكم:

- لست مفاوضًا لأقايضكم؟
- ولكنك نبيه بل كليمه.

صمت النبي قليلاً، وقد أرهقه جدال قومه الذي لا ينتهي فلا ينفك ينتهي من معضلة حتي تظهر أخري ثم قال لهما مستسلمًا:

- أأطلب لكم ما تريدون؟
- ونكون لك من الشاكرين.
- لن تطيقوا عيشًا.
- سترانا في سعادة ورغد من العيش.

وقف متضرعًا نحو السماء، رافعًا يديه مستقبلاً نور الله في قلبه:

obeikan.com

- إلهي معلمي أبي: ارزق قومي ديمومة الحياة، وخبرهم عن نعمة الموت.

خرج "سمعان" و"داود" من أمام النبي موسي وقد طارا فرحًا بسعادة تملأ روحيهما اللتين كانتا قد ماتتا من قبل، لكنهما الآن تعودان مجددًا.

"ميهيرا" "ميهيرا" ظل ينادي عليها بصوت مبحوح من فرح لا يوصف أيقظها واحتضنها بقوة حتي جعلها جزءًا منه، حاولت أن تتكلم فوضع يده علي فمها وأسكتها ثم قال:

- لا موت بعد اليوم يا " نور حياتي"، لا موت بعد إليوم.

قالت في لهفة : و"تانيا" هل ستعود؟

- للأسف لن تعود، لكن أعمارنا المديدة ستتيح لنا أن ندعو لها بالرحمة دون انقطاع أو نسيان.

بكت بين أحضانه وأغرقت بدموعها لحيته التي ابيضت كما هو الحال مع شعره من شدة الحزن علي موت "تانيا"، أما هو فقد ظل جالسًا بجوارها يحاول أن يخفف عنها.

أغلقت قلمي بعد أن أصابتني الكتابة تعبًا فوق تعبي فرغم أنها تخفف من توتري وتحسن من مزاجي إلا أنني في حاجة ماسة للراحة... لأنعزل عقليًا عن ذلك العالم، فنهضت وارتميت علي فراشي لا أريد أن أستيقظ.

المكان: مقبرة الدفن

الزمان : في أعقاب نجاح التجربة

أصبحت الآن في السابعة والثلاثين من عمري، تنتظرني أيام من النجاح، أيامي المجيدة قد حانت فقد أكون موضوعًا من مواضيع دروس القراءة لطلاب الصفوف الأولية، بالتأكيد سأكون خبرًا جاذبًا لكافة الصحف العالمية أو موضوعًا من مواضيع دروس التاريخ - إن ظل هناك تاريخ- فيما بعد.

ذهبت إلي قبر زوجتي لأتحدث إليها وأحاول أن أشرح لها ما توصلت له، أنفعل وأتأثر ثم أعود لأعتذر لها، أنتظر منها كلمة لتبارك خطواتي، أرجوها أن تسامحني فلم يكن هناك متطوع لأجرب عليه أول العينات من مصلي فكنت أنا الخيار الوحيد أمام نفسي، ورغم أن الروح صاخبة بأحاديث وانفعالات تكفي لأن يستمع العالم له لكن الصمت كان لغة حاضرة، ساعات قضيتها أمام قبرها ثم استأذنت منها في الانصراف لأتابع ما قد بدأته من قبل.

أعرف أن الهدف نبيل، لا موت سيقرب الأحباء ولا أرواح سنفقدها، لن يعاني البشر من الألم مجددًا، لكن التحذير لا يزال قويًا، وحديث سعيد دائمًا ما يرن في أذني كجرس كنيسة لا يهدأ.

قاطعت الباحثة الشابة رئيس البعثة وهو يقرأ وقالت:

- حب أفضي به إلي البحث عن دواء يقهر به الموت، وبالفعل نجح، لكنها أنانية مفرطة، فأي مخلوق يتمني أن يموت إذا مات من يحب .

رد عليها أحد أفراد البعثة:

- المعني واضح، لم يجد متطوعًا أو بالأحري جعل نفسه كبش فداء فتحول إلي طبيب ومتطوع في نفس الوقت.

وهنا تدخل الرئيس وقال بنبرة حاسمة:

- أؤكد لكم ثانية، لا نريد لأمور شخصية أن تتدخل في عملنا، المهم أن نعرف إن كان ذلك الدواء قد أدي عمله فكيف نموت الآن؟ هذا هو ما يجب أن نجيب عليه من أسئلة، دعونا نكمل حتي نصل للحقيقة.

ما إن بدأ رئيس البعثة في القراءة مجددًا حتي كانت علامات الدهشة حاضرة علي الوجوه فلقد قفز الكاتب إلي العام 2065م غافلاً فترة زمنية طويلة، وقد بدأ الأمر بمقدمة بسيطة يعطي فيها رأيه عن أحد الأشخاص، فتساءل أحد الأعضاء:

- هل فُقدت أجزاء من تلك المذكرات أثناء عملية التنقيب؟!

رغم أن الأمر لم يكن علي ذلك لكن الرئيس قال مستغربًا:

- لا أعلم لكن الأمر يدعو إلي الدهشة، ترقيم متسلسل سليم لا نجده في أي مذكرات نعثر عليها يقابله أحداث زمنية لا ترتيب فيها، يبدو أن الكاتب قد أغفل تسجيل تلك الفترة الزمنية ، لنقرأ كي نستوعب ما يحدث، أشعر أن الأمر ليس كما نراه، بل إن الاغرب أنه قبل أن يبدأ مجددًا بتاريخ محدد استهل بحديث مرسل عن ذلك المدعو عبدالحميد رئيس مركز البحوث.

ظل رأيي ثابتًا تجاه الدكتور عبدالحميد، أري أنه أيقن منذ صغره أن الشمس لابد لها من كواكب لتعكس أشعتها فاختار أن يكون كوكبًا واختار لنفسه أشد الشموس إضاءة وحرارة ليتبعها، تنقل بين شمس وأخري حتي أصبح صديقًا لمصلحته فسلك طريقًا وجد أنه الأيسر ليصل إلي مبتغاه، هكذا كان معروفًا في كل مكان ألقي فيه محاضرة أو تمت دعوته إلي ندوة علمية، متملق يصل إلي مكان لم يصل له بالبحث والمجهود، حتي تخطي الجميع وخرج من صفوف العامة، وأصطف إلي جانب أصحاب النفوذ والسلطة، لكن لا يهم، أنا وصلت وتلك أحقاد ليس إلا... يحدث الدكتور عبد الحميد نفسه بتلك الكلمات يبرر أفعاله لا يري فيها ما يشين... ظل يحادث نفسه بينما يخطو خطواته البطيئة في ممر محاط بالشجر الأخضر من أنواع نادرة قد جلبت من الخارج وذلك في طريقه إلي قصر الحاكم الفيدرإلي، منذ أن تقرب منه وقد أصبح بمثابة مستشارعلمي له فأعتلي منصب رئيس هيئة البحوث الفيدرإلية حتي وصل لدرجة أن تم وضع اسمه ضمن قائمة أشخاص مسموح فقط لهم أن يلتقوا بالحاكم في أي وقت مهما كان ليلاً أو نهارًا، وبالفعل بمجرد أن انتهي حاتم بمعاونة فريقه الطبي من تجربته وبعد أن تأكد من نجاحها حتي سارع بها لقصر الحاكم ليخبره بذلك الاختراع، يعرف بما يدور في أروقة القصر، فالمعارضة قد احتد نشاطها ومطالبات بعقد انتخابات رئاسية تلوح في الأفق حتي ضاق الحاكم الفيدرالي ذرعًا من تلك المعارضة، فأراد بذلك الاختراع أن يتقرب أكثر للحاكم والذي ما إن عرف عنه حتي لمعت في رأسه تلك الفكرة التي طالما لمعت في رأس حكام كثيرين قبله:

- سنلقي لهم بتلك الدمية يلهون بها قليلاً، علهم ينسون ما يقولون إنها مشاكل كنا سببًا لها.

قالها الحاكم الفيدرالي والتفت إلي كبير خبرائه والملازم له دائمًا وقال:

- نريدها حملة دعائية ضخمة، تهول من خطر الموت وتعرض عليهم الحياة الدائمة، لا أظن أنهم سيعترضون بعد الآن.
- أمرك يا سيدي!

ثم شكر الدكتور عبدالحميد، وبابتسامة قال له:

- وأنت يا دكتور ستظل دائمًا طريقنا العلمي،... ومنقذنا الذي نلجأ إليه كلما أُغقلت أمامنا كافة السبل والمنافذ.
- هل تريد أن تلتقي بحاتم ومساعده؟

تساءل الدكتور عبدالحميد وهو يتخوف أن يجيب الحاكم بالإيجاب.

- لا لا، يكفي أن ألتقي بك فقد، فقد أثبت ولاءك ولن أحتاج إلي أحد غيرك.

فخر شديد شعر به الدكتور عبدالحميد جعله يقول في هدوء:

- أنا عالمك المخلص حضرة الحاكم الفيدرالي.
- حسنًا، اذهب الآن ولنا لقاء فيما بعد، أما أنت يا خبير فاحرص علي أن تنفذ ما أمرتك به بدقة متناهية.
- أمرك يا سيدي.

obeikandl.com

(هذا الجزء من المذكرات بقلم صديقي وتلميذي)

الزمان : أكتوبر/ تشرين الا ول 2065 / م.

المكان : قاعة المحاكمة

تبدلت أحوالي وتغير الوضع تمامًا، ففي الماضي تمت معاملتي كبطل قومي أما الآن يتم تقديمي إلي المحاكمة، يطالب الجميع برأسي فليس لبطل أن يحيا في عالم صنعه من الشك والألم، تلونت عيناي بالدهشة حين وقفت أمام المرآة كي أرتدي ملابس قد خصصت ألوانها لي لتميزني عن غيري، فأسبلت جفوني، حركت شفتاي متمتمًا بكلمات علها تُطمئن روحي المسلوبة مني، لكن عقلي يرفض أن يصدق أن خيرًا قادم في الطريق، أعامل معاملة لا تليق أبدًا بعالم، اليوم هو آخر أيام محاكمتي.

لم أستعجل الموت فلا سبيل له، فحاولت أن أتعايش مع الوضع القائم، أستيقظت صباحًا وقمت بأداء تماريني الرياضية المعتادة فجسدي أصبح في حاجة لها عن ذي قبل، لن أموت، هذه حقيقة مفروغ منها لكن لا تنفي ما سأراه من عذاب قد لا يحتمل.

وصلت تلك السيارة الكئيبة المخصصة لتنقلني إلي قاعة المحاكمة والتي ما إن دخلت إليها حتي تعالي ضجيج الحضور، فالقضية هي قضية البشرية بأكملها، هكذا أطلقت عليها الصحافة ذلك اللقب.

قبضتان من فولاذ تمسكان بي تجران جسدي جرًا، والأنظار تتجه نحوي تخترقني وتترقب ما قد تسفر عنه تلك المحاكمة.

وقف القاضي ليعلن بيديه إشارة بدء المحاكمة وانتهاء صخب الجمهور العالي، ثم جلس علي مقعده وطلب من هيئة المرافعين ضدي أن تتحدث فوقف كبيرهم والمتحدث بالنيابة عنهم ليقول مرافعته:

- منعتنا نعمة الموت فأصبحنا ذئابًا لا تشبع ووحوشًا لا ترتوي من دماء ضحاياها، أصبح التعذيب غايتنا الأسمي فلا موت سيأتي لكن العذاب يظل عذابًا، كم من جرائم ارتكبت ،...وكم من أفعال شنيعة قرر البشر ابتكارها، فالحروب النووية أصبحت من الماضي العتيق

نظرت إلي باب القاعة لأجد شخصين قد اقتربا من قفصي الزجاجي واتخذوا مقاعد لهم، أحدهما رأسه قد تحولت لحقل من القطن الأبيض لا تتناسب مع سنة الحقيقي، عيناه تتقدان ذكاء، أما الآخر فعيناه فيهما حزن ظاهر، دخلا ومازال المدعي يكمل حديثه فاتخذا لهما مقعدًا ليريا ما جلبته لنفسي، بلغ الإنفعال مبلغه من المتحدث ثم عاد مرة أخري للاعتدال في جلسته وتابع حديثه قائلاً:

- لا بداية بلا نهاية، وأي طريق مهما طال لا يسوي من الأمر شيئًا أن لم ينته، يبدو أن البداية لا تبشر بنهاية جيدة، فكل عوامل الطبيعة تقف أمامي لأجد نفسي أمام أحقاد زرعت في النفوس تحاول أن تقتلع روحي لتقتص منها، ثم تعيدها إلي جسدي مهدمة وخربة فلا تعد صالحة للاستخدام الآدمي.

ورغم ذلك فإنني قد واجهت الموقف بشجاعة أحسد نفسي عليها فوقفت أرد ما نسب إلي من تهم، السلاسل لا تسمح لي بالحركة، لكن لساني مازال نشطًا طليقًا يزاول عمله بإخلاص:

- لم أذنب؛ فكل ما أردتة الراحة للبشرية، الآم البشر متعددة، وأكبرهم هو ألم الفراق، وقد مررت به كثيرًا فأقسمت ألا يعاني أحد كما عانيت أنا.

ضج الحضور بهمهات مرتفعة، وظهرت أصوات معترضة تطالب لي بالعذاب الأبدي، فنظرت لهم بصمت كأنني حجر ساكن لا ينطق، وظللت علي تلك الحالة حتي رفع القاضي مطرقته الخشبية أصدر بها صوتًا تكفل بإسكات الجماهير، ثم رد عليّ كأنه خصم لي:

- الشيطان يكمن في التفاصيل، وأنت اتخذت تفاصيل حياتك لتبحث لنفسك عن مبرر لتلك الفعلة، صنعت للبشرية ما لا تطيق ولا تحتمل، وعدتنا بعالم جديد لكنه تساوي مع ذلك القديم بل زاد وحشية وقسوة عما رأيناه سابقًا، ثم أردف قائلاً:
- أحاول أن أبحث لك عن مخرج من تلك الجريمة لكن دون جدوي.

تمسكت بصمتي حتي سألني القاضي عن دفاع أتقدم به فقلت :

- أعترف أن الأمر قد تحول إلي نقمة علي البشرية، وأعترف كذلك أن الحياة بلا موت كانت وبالا علي الجميع، فقد زادت بشاعة البشر واختفت الرحمة من القلوب، يمكن لعدو أن يعذب عدوه حتي يقعده عن الحركة، سيتعذب في وقت يحتاج فيه أن يموت، الموت لم يعد ضيفًا أبدًا، لكن كيف أحاسب علي ما صنعت لأخدم البشر، منذ أن اكتشف الانسان المخدر وقد استخدموه في مجالا ت الطب، إلا أن البعض قد استخدمه ليذهب به العقول.
- ولكنك خالفت طبيعة البشر فكيف نولد دون أن نموت؟!!
- ولكني حاولت أن أجعلهم يعيشون الحياة دون عناء فراق الموت .
- رغم أنك حاولت ذلك لكن النتيجة واحدة فأصبحت مذنبًا بوضوح.

حاولت أن أتودد لهم فرأيهم نافذ لا رجعة فيه فأردفت قائلاً:

- أرجو أن أحاسب علي نية فعلي، وليس علي نتيجته.

- كم من أفعال ترتكب باسم البراءة لكن النتيجة واحدة، مذنب مذنب مذنب.

بيأس حاولت التشبث بآخر فرصي للدفاع عن نفسي، لكن الأمر قد صدر والحكم قد نفذ فوضعوا قناعًا علي وجهي ليمنعوني من الكلام... وهذه هي العادة مع من يحكم عليه بذنب عظيم حتي لا يستمع أحد من الحضور إلي لغوه.

عادت نفس اليدين لتمسكا بي بشدة وعنف زائد كأنه الانتقام وقد حل، فقاموا بجذبي من القاعة وأذني تلتقطان حكمًا يتلوه القاضي عقابًا علي فعلي الدنئ كما صوروه دائمًا والحكم النهائي :

- يعذب لمدة لا تقل عن ثلاثين عامًا وقد تزيد .
- يتم وضعه أسبوعيًا في ميدان عام ليرجم بالحجارة، ويعالج حتي يشفي ويكرر الأمر تباعًا.

عم الهدوء القاعة ثم عادت المحكمة لتضيف جملة أخيرة:

- تكلف المحكمة الهيئة الفيدرالية بالبحث عن عالم مختص بالعلوم الجينية للعمل علي إنهاء تلك اللعنة واختراع دواء يعيد للإنسان نعمته المفقودة.

رُفعت المحكمة، وليذهب الجميع إلي شأنه ليصلوا لله أن ينهي تلك اللعنة.

آخر نظراتي لمحت فيها الدموع تنهمر بغزارة من عين صديقي الدكتور ومساعدي الباحث.

أطلت نظرات عدم الفهم من عيون الفريق البحثي الذي أصبح لا يصدق ما حدث، هل جاء علي البشر يوم كانوا فيه مخلدين؟

- كيف هذا وكيف انتهي هذا الأمر؟
- كيف تتحول نعمة الحياة إلي نقمة؟ تساءل أحد الا ثاريين.
- لا نعرف حتي الآن، فالأمر فيه سر ما... وإلا لما أوصوا بإنهائها.

سيستمر البحث لنعرف كيف أنهوا تلك اللعنة ومن أنهاها ما مصير ذلك العالم.

انصب تفكير رئيس البعثة حول سؤال واحد؛ كيف ينهي البشر بأيديهم تلك النعمة؟ من يرفض ان يعيش مدي الحياة؟؟ فهو أما مخبول أو أصيب بما لا يحتمل من عذاب فرأي أن الموت هو المخلص.

- الآن نكتفي من تلك المذكرات ولنجعلها أساس بحثنا في الفترة المقبلة؛ حتي نعلم عنها أكثر.

استأذن في الانصراف ليذهب إلي خيمته حتي يستريح، بمجرد أن دخل خيمته حتي قام بغسل وجهه بالماء كي يتخلص من آثار يوم شاق، وما إن رفع عينيه حتي وجد في المرآة صورة لرجل يبدو عليه تقدم العمر، التفت في سرعة فوجد الرجل ساكنًا في مكانه.

- من أنت، وكيف دخلت إلي هنا؟

قالها وحين لم يتلق ردًا هم أن ينادي علي العامل الذي خصص لخدمته قبل أن يوقفه الرجل عن الصراخ ويقول له:

- أنت من دخلت حياتي فكان من الواجب أن أرد لك التحية.

ظهر التوتر والانفعال علي وجه رئيس البعثة وقال في عصبية ظاهرة:

- لا أفهم قصدك.

قابله ببرود أعصاب ثم قال:

- اهدأ، اجلس واستمع.

تطاير الشرر من عين رئيس البعثة وظهرت حدة في ملامح وجهه، شعر بها الغريب فحاول أن يهدأه قائلاً له :

- إذا حاولت أن تقتلني فلن تصل إلي نتيجة أكثر من مجرد جسد مصاب بجروح سوف تأخذ وقتًا كي تزول.

توقع الغريب أن يستخدم رئيس البعثة غريزته الحيوانية في القتل، لكنه نظر له مطمئنًا إياه و قائلاً:

- لا تخف فرغبتي بالمعرفة أكبر بكثير من أي رغبات أخري مكبوتة.

ثم تابع حديثه وقد بدأ الهدوء يظهر تدريجيًا:

- أرغب في الاستماع إليك، رغم أن تصديقك عسير علي أمثالي.
- بمجرد أن أنتهي ستعرف من أنا، لكنك الآن تستطيع الاستمتاع بما سأمنحه لك من معرفة.

اتخذ مقعدًا وجلس عليه، وما إن جلس حتي مرر له الزائر غريب الوجود مجموعة من أوراق قد جمعها بطريقة فيها الكثير من الإهمال قائلاً له بلغة من يأمر وهو واثق في التنفيذ: اقرأ.

المكان: القاهرة، إحدي المصحات النفسية.

خرج الطبيب من تلك الغرفة التي كُتب عليها محظور لغير العاملين بالمستشفي، يظهر الانهاك علي وجهه... وكأنه لم ينل قسطًا من الراحة منذ فترة ليست بالقصيرة، فيمشي متألمًا نفسيًا قبل أن يكون مرهقًا بدنيًا، العرق يتصبب من جبينه ليرسم عليه خطوطًا كأنهار تتدفق تشق طريقها في الصخر، يمشي في ممر طويل محملاً بألم من التفكير والهموم التي لا تفلح معها أي محاولات لإزالتها، من حين لآخر تتأذي أذناه بسماع صرخات تأتي من أحد العنابر المنتشرة علي جانبي ذلك الممر، في الآونة الأخيرة ازداد العدد بكثرة وتفشي الجنون بين البشر، سيطر عليهم، وأدخلهم في غياباته التي لا يعود أحد منها، حتي إن المكان لم يعد يكفي الجميع فتم وضع أكثر من حالة في مكان واحد وتحت إشراف طبيب واحد، وذلك علي عكس المعتاد، ازدادت أفكاره السوداء في عقله لتحل محل سلامه النفسي، الذي ظل يبحث عنه طوال حياته، وصل إلي مكتبه، أصبح يضم أماكن لخمسة أطباء بدلا من اثنين فقط نظرًا لاستعمال باقي الغرف كمكان لإستقبال المرضي الجدد، وبمجرد أن دخل حتي وجد أمامه رجلاً في العقد السادس من عمره ذا عوينات سميكة وجسد كان في الماضي مشدودًا قبل أن يتلفه الزمن، وتمر عليه الأيام لينحني، ألقي التحية علي الجميع، وجلس أمام العجوز الذي لم يضع وقته فتساءل عن الحالة الصحية لابنه:

- الحمد لله يا والدي.

شعر العجوز أن الطبيب لا يرغب في أن يخبره بكامل الحقيقة فألح عليه في طلبها

- إبنك أصبحت حالته من الحالات الصعبة التي تعرض علينا، حاولنا أن نستخدم معه كافة العلاجات الممكنة، لم يعد أمامنا سوي استخدام جلسات الكهرباء.

بمجرد أن قالها الطبيب حتي انتفض الرجل متألمًا، وكأنه قد أصيب بصدمات كهربائية كتلك التي سيعاني منها ابنه، حاول أن يتحدث لكن لسانه لم يطاوعه في اخراج أية حروف ممكنة فصمت.

obeikan.com

تناول رئيس البعثة تلك الأوراق وبدأ في قراءتها :

اجتمع المحتجون أمام قصر الحاكم الفيدرالي، اتخذوا من ساحته مقرًا للاعتصام حتي أطلقوا علي ذلك المكان (ساحة المطالبين بالموت)، وما بين وقت وآخر يعتلي أحد المحتجين المنصة، يخطب في تلك الجموع الغفيرة، يستعمل شاشات عرض ضخمة كانوا قد نصبوها كي يوصلوا فكرتهم لتلك الحشود التي لا تهدأ، أيادي ترتفع محلقة لأعلي تتحرك بطريقة موحدة منتظمة تهتف مطالبة برأس الحاكم، هو من يتحمل المسئولية ولا أحد غيره يتحملها، لقد خدعهم؛ أوهمهم في البداية بالحياة ورغدها فصدقوه، وعندما اكتشفوا أن الألم لا ينتهي ثاروا واحتجوا بشدة فأصدر الحاكم أوامره بالقبض علي زعمائهم، فاستحالت شرارة غضبهم لحريق ملتهب ذي دخان أسود يتصاعد ليشق عنان السماء، انصب هدف الثوار علي تحرير رقابهم من ذلك الطاغية الذي حرمهم حرية الموت ويريد الآن أن يحرمهم حرية الحياة، رفعوا شعارًا واحدًا ذا هدف واحد لم يختلف عليه أي عنصر أو تيار "أعطونا حرية الحياة، أعطونا حرية الموت"، تلك عبارة قالها أحد المحتجين، كان ذلك في دائرة اجتماع صغيرة سرعان ما اتسع قطرها، هكذا هي الكلمات الرنانة ذات الصدي الفكري الواسع، أبدًا لا تموت، لاتختفي، تنتشر وتحلق لتصل إلي أبعد المسافات تتخطي حواجز الزمان والمكان لتخلد أبد الدهر.

"أعطونا حرية الحياة، أعطونا حرية الموت"

"أعطونا حرية الحياة، أعطونا حرية الموت"

في البداية لم يهتم بهم الاعلام، تجاهلهم، أشاروا لهم بسخرية أحيانًا وكخبر عادي لا خوف منه في أحيان أخري، ظهرت تلك الاحتجاجات في برنامج واختفت في عشرة، بعض الإعلاميين أيدوا الحاكم بشتي الطرق،

فعرضوا نماذج نجاح مزيفة لتجربة الديمومة، فندوا أسباب الاحتجاج، حاولوا إخفاء الموجود كي لا يصبح له وجود، لكنهم فشلوا.

المكان : مركز دراسة الجينات الوراثية التابع للمختبر الفيدرإلي

الزمان : بعد التجربة بعشر سنوات(2061)

"عشر سنوات مرت علي اختراع ذلك المصل القاتل، في البداية عاش الناس أيامهم في سعادة لا توصف، اختفي الموت فكانت هذه هي أفضل صور الحياة علي الأرض، يظهر أن الأيام القادمة سوف تحمل لنا من الخير الكثير".

هكذا يتحدث حاتم في أحد المؤتمرات العلمية التي كانت تعقد احتفاءًا بالإنجاز غير المسبوق، ورغم أن الحاضرين قد اتفقوا علي سرية المؤتمر واقتصاره علي العلماء فقط دون اعلان اسم أي من الحاضرين أو أصحاب الاختراع أمام العامة، وبالتالي فلن تتعدي كلمات حاتم تلك الغرفة، لكن وكأي صحفي يحترم نفسه استطاع أحدهم أن يخترق المؤتمر متنكرًا في هيئة عالم، وأن ينشر أسماءهم، الأمر لم يكن له تأثير في حينه لكنه كان ذا أثر فيما بعد، ما حدث في المؤتمر لم يكن فيه من الإثارة ما يجذب وسائل الإعلام إليه، فقد وقف حاتم شامخًا مفتخرًا بنفسه فاعتلي منصة الإلقاء وجلس أمامه من كانوا بالأمس القريب أساتذة له، أما مساعده فقد اتخذ له مقعدًا بجواره مزهوًا بنفسه.

تلك المناسبات لا تمر أبدًا دون أن يكون هناك ما يعكر الصفو فقد وقف سعيد طالبًا الكلمة حتي أُذن له، فألقي عليهم التحية وبدأ في الحديث عن تلك التجربة وما خلفته من نتائج إيجابية حتي استبشر حاتم بحديثه وظن أنه اقتنع أخيرًا بوجهه نظره، لكن سعيدًا كان له رأي آخر حين أنهي حديثة قائلاً:

- اسمحوا لي أن أخرج علي النص وأتطرق قليلاً إلي مواضع خوفي التي لم أذكرها أمامكم حتي الآن.

صمت قليلاً وتابع بصورة هجومية قائلاً:

- أي اختراع تتحدثون عنه، ألا ترون ما يحدث الآن، بالأمس كنا نحارب لنصل إلي دواء يسهم في شفاء المرضي واليوم لأجل ماذا نعيش، أعدكم أن ثمن الموت سيرتفع وسيأتي يوم يطالب الجميع به، لكن دون جدوي، حينها سيكون العقاب حاضرًا ووقعه سيكون سيئًا علينا، الجنة لا تحوي موتًا بينما علي الأرض أن تفعل، أن تكون مقرًا ومستودعًا له.....

تعالت صيحات معترضة تطالبه بأن يصمت لكنه صمم علي أن يواصل حديثه، مجددًا حاولوا أن يقاطعوه أو يأخذوا منه الكلمة لكن صوته كان قويًا يدوي فيخرس الجميع ثم تابع قائلاً:

- أنتم لا ترون إلا ما ترغبون في رؤيته، بالطبع لقد سعد البعض بهذا الاختراع، أما الآن فتعاسة ظاهرة أصبحت بادية علي الوجوه لمن هم في سن يحتاجون فيه إلي الموت ليرتاحوا من عناء المرض والشيخوخة وشقاء الحياة، لقد أجبر الجميع علي المصل كي يتساوي البشر، البشر أبدًا لم يكونوا في مرتبة واحدة.

وقبل أن يواصل حديثه قاطعه حاتم وقال:

- ولكنهم قليلون.

قالها وقد تقمص شخصية المحامي البارع لكن براعة سعيد أوقفته عن الحديث حين قال:

- يبدو أن أبسط قواعد العلم لم تمر بك ياصغيري، شاب اليوم هو عجوز الغد وأدعو الله أن تحيا لتري ما يشعرون به إليوم.

أثارت الكلمات بداخل الباحث الشاب خوفًا مكتوماً لم يفصح عنه في حينه.... فنظرة واحدة من حاتم كانت كافية لجعله يتماسك محاولاً إخفاء ما في قلبه من خوف قد يظهر محطمًا إحدي أهم الحجج التي يستعين بها حاتم الذي حاول أن يكون حائط صد أمام كلمات سعيد المنهمرة كحمم ويدافع عن مصله

- أخبرني يا صديقي بأمر هام، كم عزيزًا فقدت وكم روحًا قد ذهبت إلي غير رجعة، ثم أخبرني ألم تتألم؟ ألم تشعر بالعجز؟
- تألمت لفقدان كثيرين، حتي إنني افتقدك أنت شخصيًا ..

ارتسمت علي وجه حاتم ابتسامة ساخرة قبل أن يواصل سعيد حديثه:

- إذا كنا سنعمل علي تجنب أن نفقد أناسًا بالموت فماذا سنفعل لكي نريحهم من عناء المرض والألم؟ تخيل معي زوجتك تعاني من ألم مبرح ولا شفاء له، أليس من الأفضل لها أن تموت لترتاح، أنت تتعامل بأنانية.

أثرت تلك الكلمات في نفس حاتم فامتلأت عيناه بدموع حاول إخفاءها دون جدوي، فقال:

- الموت ليس أفضل الحلول يا صديقي، أعدك أني سأثبت لك ذلك قريبًا، تدق الساعة الثانية عشرة ظهرًا لتعلن انتهاء المؤتمر.

قصر الحاكم الفيدرإلي

الزمان : أكتوبر 2063

اجتماع طارئ دعا له الحاكم ليصل إلي حلول لمشاكل أصبحت متفاقمة، المعارضة التي أخمدت عادت جذوتها لتشتعل مجددًا، الشعب يثور ويطالب، النعمة التي تمنوها أصبحوا اليوم يتمنون زوالها، لم يعد لهم رغبة في الحياة، حتي فئة الشباب منهم لا يرون استمتاعًا بما يعيشونه، شعروا بقيود الخوف من الحوادث التي قد تؤدي لألم قاتل دون موت.

فتح الباب أمام الحاكم، دلف إلي غرفة الاجتماعات، حيا وزراءه، ثم جلس وطلب منهم أن يفتشوا عن أفكار جديدة خلاقة، فما يواجهونه إليوم لم يروه من قبل:

- يجب أن نحاول استغلال هذه الميزة فلنضاعف ساعات العمل والإنتاج.

هكذا تحدث أحد الوزراء، إلا أن رد الخبير وكبير وزراء الحاكم كان مخالفًا:

- قمنا بذلك مسبقًا، وإن قمنا به ثانية ازدادت المعارضة عنفًا... وقد ترتدي طابع الشراسة، فالعمل لا يُنسي الألم، بل قد يؤدي لحوادث تذكر المواطنين بأهمية الموت.

اقترح أحدهم أن يوزعوا علي المواطنين تعليمات وإرشادات تضمن سلامتهم من الحوادث و تبشرهم بالحياة الأبدية دون ألم أو معاناة إن هم طبقوا تلك التعليمات، بل وأضافوا عليه أن يوزعوا الأموال عليهم، لكن ذلك الاقتراح وغيره قوبلوا جميعًا بالرفض، فظلوا يواصلون حديثهم بضرورة العثور علي أفكارغير تقليدية لمشكلة غير تقليدية، أما الحاكم فظل يراقب تلك

النقاشات دون اقتناع منه بأي حل يطرح حتي شعر برغبة في مغادرة اجتماع لا طائل منه وبالفعل غادر وعلي وجهه علامات من الضجر الظاهر بشدة.

- سيدي الحاكم، سيدي الحاكم!

نادي عليه الخبير دون رد فركض وراءه ليستفهم منه عن رأيه فقال له:

- يجب أن ينتهي هذا الأمر بسرعة.

في حدة وخوف قالها ثم انصرف.

obeikan.com

المكان : قاعة المحاكمة

الزمان : أكتوبر 2065

خرج سعيد بصحبة خالد، لم يجدا أمامهما طريقًا يسلكانه، لكن نظرات متبادلة بين الطرفين كان مغزاها أن الموت أهون من أي تعذيب سيتعرض له حاتم، صرخاته سوف تتصل ليل نهار ولا مجال للموت كي يرتاح.

- دعنا نذهب إلي المعمل.

هكذا اقترح سعيد فوافقه خالد، دقائق حتي وصلا، بمجرد أن دخلا حتي انفجر خالد في بكاء مرير مصحوب بصوت عال، كأنه يتحسر علي ما حدث من قبل، ألم الشعور بالذنب يقطع أوصاله، لم يعد يري أي مغزي ليبقي في تلك الحياة والناس تتعذب بسببه، بل إن حاتمًا سوف يتعذب أيضًا فبكي بشدة، حاول سعيد أن يهديء من روعه قائلاً له:

- ليس أمامنا وقت للبكاء.
- لا أملك غيره.
- تملك أن تعمل، أتفهم ؟؟

نظر له بعينين قد تحولتا للون الدم من كثرة البكاء ثم أخرج من جيبه مفتاحاً واتجه إلي مكتب حاتم، أخرج منه بضع ورقات معدودات قد كتبت كلماتها بخط اليد، ناولها لسعيد ليطلع عليها الذي قال له:

- هي تجربة واحدة أما أن تنجح أو تفشل.

انتهي سعيد من قراءة تلك الأوراق وقال:

- تلك أبحاث تتحدث عن مضاد لإكسير الحياة وهو ما يصعب إنجازه في وقت قصير، لنبدأ ولنعرف أن الوقت ليس حليفًا لنا لكن الأمل موجود، قد نقضي علي تلك اللعنة.

وعلي جانب آخر كان حاتم يتعرض للعذاب علي يد المساجين مما راؤه من ألمم الحياة ويتمنون زوالها، تحرشات بدنية ونفسية أصبح يتعرض لها في انتظار العقاب الأكبر أن يصلب ويرجم بالحجارة .

المكان: منزلى (بقلمي أنا الدكتور حاتم)

الزمان : نوفمبر2061

استيقظت صباحًا وصدري يختنق من ضيق قد ألم به، أما جسدي فأصبح منهكًا بصورة لم أعد أحتملها، إذا كنا قد وصلنا إلي حل للقضاء علي الموت، فما هو حال من مات وفارقناه؟

سؤال أصبح يتردد، فأوجاعي مازالت موجودة، وجراحي لم يأن لها أن تندمل بعد، كبركان يلقي علينا بحمم تغطي الوجود، تمنع الرؤية بذلك الضباب الذي لا يغادرنا إلا ونحن في حالة من التوهان، وقفت أمام المرآة، حدقت فيها لوقت لا أعلمه حتي شعرت باهتزازات عنيفة تجتاح جسدي، لا أعلم السبب، لكنها كانت كالكهرباء قد بثت في جسدي، نبضة تنتهي لتبدأ أخري فلا تترك مجالا ليرتاح مما هو فيه من ألم، شعرت بذلك، ولم أعد أحتمل حتي سقطت علي الأرض ثم اختلطت أمامي الرؤي فوجدتني أري أضواءً بيضاء كتلك الموجودة في المختبر الخاص بي، ورجال يركضون هنا وهناك، مشاهد مختلفة وبكاء يتعالي، جسدي مازال ينتفض، لحظات استغرقها الأمر، لكنني شعرت أنه أطول وقتًا من ذلك، انتهت تلك المعاناة التي لم أجد

لها تفسيرًا، قد يكون مجرد شعور بالإرهاق من متاعب حياتي التي لا تنتهي، فنهضت من جديد أتكئ علي ما أجده من أثاث، نظرت إلي الساعة، إنها الخامسة صباحًا، منذ لحظات كاد الألم أن يقضي علي لا أعلم له سببًا مقنعًا، إلا أن فكرة قد قفزت إلي رأسي كنار تشتعل في كومة من الحطب الجاف، فرأيت في نفسي رغبة في التشاور حولها والبحث عنها.. هل أوقظ صديقي الشاب؟ ما المانع؟! العلم ليس له أوقات محددة، اقتربت من الهاتف، وطلبت رقمًا أصبح محفوظًا في ذاكرتي.

- صباح الخير
- صباح الخير يا دكتور، خيرًا.

قالها وأنا أعرف أن النوم يعتصر عينيه، صمت قليلاً ثم تشجعت وقلت له:

- أريد أن ألتقي بك الآن.

صمت قليلاً يحاول أن يستوعب تلك الفكرة ثم تساءل عن السبب

لم أجبه، اكتفيت بالقول:

- ستعلم عندما تأتي.

رد مستسلمًا: حاضر، مسافة الطريق.

أعرف أنه لن يتأخر، وبالفعل مر وقت بسيط قبل أن يأتي، كنت قد أعددت لنا فنجانين من القهوة، فيجب أن أعوضه عن حلم ضاع منه في تلك الليلة، دخل ثم جلس، دقائق ثم بادرته بالحديث قائلاً:

- بدون مقدمات طويلة إذا كنا قد منعنا الموت عن الأحياء فلنرجع الحياة للموتي.

اندهاشه ونعاسه كونا مزيجًا لوجه لا مثيل لـه من البلاهة، ففتح فمـه عند سماع تلك الفكرة حتي خيل لي أن لعابه قد سال خارجـه، شعر أنـه مـازال لم يستيقظ بعد، فقد نظر لي دون فهم، ثم توجه إلي الثلاجة، أحضر منها زجاجة من الماء البارد، سكبها علي رأسه باحثًا عن استفاقة، كتمت ضحكاتي عندما رأيته يفعل ذلك.

نظر لـي متفحصًـا ملامحـي، محـاولاً أن يتبين جنوني، لا أعرف لمـاذا أصبحت عاشقًا لتلك النظرة، ذلك الوجوم الذي أصبح يظهر علي وجه من ألقي عليهم كلماتي، أشعر بعدها بالزهو، بدأ في الكلام وكعالم لا يريد للخيال أن يسيطركليًا علي عقله قال:

- كيف لنا أن نوقظ الميت؟

في لهجته نبرة من سخرية أعرف أنها تسللت إليه دون إرادة منه.

- قرأت فرانكنستاين؟
- العالم المجنون؟!
- هل تعلم أفكاره عن إحياء الموتي؟
- بـالطبع من منـا لـم يقرأ قصته، ومحاولتـة أن يستخدم الكهربـاء فـي إعادة إحياء الجسد البشري باستخدم نبضاتها.
- هي نفس الفكرة.
- ولكن النهاية كانت مؤلمة حتي إنه قد هرب منها باحثًا عن النجاة.
- تتبلور الفكرة حول أن نحضر جثة وأنا سأتكفل بذلك ثم نقوم بعمليـة ترقيع ما تهالك منها باستخدام مواد طبيعية بشرية بالكامل.
- ثم؟
- نعرضها للأشعاع الكهربي الممزوج بمسرع نووي للخلايا.
- لكن التجربة قد تفشل، وهو أمر وارد بشدة.

- إذا فشلت فسوف نبحث لأنفسنا عن طريق آخر.

يبدو أن خالدًا قد اعتاد علي هذا الجنون فلم يكن أمامه خيار آخر سوي أن يوافق قائلاً:

- أنت أستاذي ومعلمي الأول ومنحتني فرصة لم تتح لأحد من قبل، أنا معك مهما كانت العواقب.

obeikan.com

المكان: مقر إقامتي بجوار المختبر الفيدرالي

الزمان: 30 يناير 2062

ظللت مستيقظًا لفترة طويلة من أيام وليال قد مرت، وأنا علي نفس الوضع، أراجع وأرتب آخر ما وصلت إليه من معلومات محاولاً أن أتجنب أي أخطاء قد أقع فيها، فتلك التجربة فريدة من نوعها، ولا مجال لإعادة ما هو مرفوض من الأساس.

منذ فترة بدأت تلك الفكرة تراودني، ومنذ ذلك الحين ونفسي لم تعد هادئة كما كانت من قبل فأتوق دائمًا لهذا اليوم، مستقبلاً قد أري زوجتي تحدثني، قد أراها تمشي، تتحرك، تأكل وتشرب، ببساطة قد تعود إلي الحياة من جديد، وقد يحدث العكس تمامًا، لكنني لن أتعجل الأمر، سأتمهل حتي أصل إلي ما أريد، نظرت إلي الساعة فوجدتها قد أقتربت من الرابعة فجرًا، فذهبت لآخذ قسطًا من الراحة وأنعم ببعض النوم.

في غرفتي ألقيت تحية المساء علي صورتها، أمامي فقط ساعات قليلة حتي ألقاها، ولن تمر أيام حتي أسلم عليها، هذا في حال نجاح التجربة، حدثت نفسي بذلك ثم تدثرت بغطائي وأغمضت عيناي لأجد نفسي في مكان شاسع ذي أشعة بيضاء، نظرت لأعلي لم أجد سماءًا أو حتي مصدرًا لتلك الأشعة، رغم أنني لم أنظر إلي نفسي لكني أعرف أنني أرتدي ملابس كتلك التي ارتديها في المختبر، يظهر أمامي من بعيد ظل كائن له ملامح إنسانية، يقترب هذا الظل رويدًا رويدًا.. ليعلن عن نفسه، بمجرد أن رأيته حتي شعرت بفرحة غمرتني، إنها زوجتي، بلا شك هي، فتلك عيناها وهذا وجهها وهذه ابتسامتها بل وتلك التجعيدة البسيطة علي أقصي خدها الأيسر، أعرفها تمام المعرفة، وأعرف سببها تنظر إليّ كأنها تنظر للعدم فلا تراني أو حتي تشعر بي، فتحركت أمامها لكي أجذب انتباهها وحين انتبهت إلي وجودي نظرت لي

بخوف وصل حد الرعب، لا أدري ما السبب فقد بدأت تركض مبتعدة عني في اتجاه لا نهاية له، خشيت أن أفقدها ثانية فهرعت وراءها حتي تمكنت من الإمساك بيدها التي انخلعت عن جسدها كأنها دمية من شمع فتناثرت أشلاؤها ودماؤها حتي غطت وجهي، وهي لا تشعر أو حتي تصدر صوتًا ينم عن الألم، ذُهلت لذلك الموقف فأمسكت بيدها الأخري في محاولة يائسة لأرجعها إلي وكان الحال مثل الحال يدها تنخلع بشدة ودماؤها تعود مرة أخري لتتناثر علي وجهي من جديد.

يرتفع جرس المنبه بصوت يؤلم أذني، عقلي الباطن يعلم أن الوقت قد حان للاستيقاظ، وهذا الجرس تنبيه لي لأفيق من نومي، لم أكن أريد أن أغادر فراشي في ذلك التوقيت، بل أرغب في مزيد من الرؤية، منذ متي ورغباتنا تتحقق؟!

بعين نصف مفتوحة قمت متكاسلاً، أستند إلي حائط تلو الآخر، وكلما استندت علي واحد أغمضت عيناي عسي أن أري نهاية لذلك الحلم، أو أن أجذبه إلي الواقع فأراه أمامي، وما هي إلا ثوان معدودة تخليت بعدها عن التفكير في أمر ذلك الحلم حتي لا أفوت الواقع.

أنها الرابعة فجرًا، الشمس لم تشرق بعد والليل حالك الظلام، تلك ليلة لا يظهر فيها ضوء من قمر يأبي أن يخرج علينا بأشعتة لينير لنا ذلك السواد، تسللت بين أشجار حزينة ذات فروع تيبست حتي تحولت إلي أشواك تؤلم من يقترب منها، خدشت إحدي أشواكها قدمي نظرت لها لكنني لم أشعر بأي ألم فيها، فحالتي من الإثارة وازدياد تدفق الأدرينالين بقوة جعلني لا أشعر بالألم مهما بلغت قوته، سرت متجاوزًا مقابر عديدة حتي وصلت إلي المكان المنشود، أغمضت عيناي وركعت علي ركبتاي، حاولت أن أستنشق هواءًا فجريًا باردًا عسي أن يهديء من روعي ولو لفترة قليلة حتي أنتهي من تلك المهمة، لكنني وجدته هواءً معبأ برائحة الموت، أعرف تلك الرائحة وأتذكرها

بشدة، أشمها حين أقترب من بقعة من قبل كانت مرتعًا لملك الموت، يترك فيه آثاره فأستنشقها، وأشعر فيها بأنفاسه، فتحت عيناي لأنقذ نفسي من تلك الخيالات، أمسكت رفشًا كنت قد أحضرته معي، ثوانٍ معدودة حتي بدأت الحفر، أتنفس في سرعة متزايدة فيرتفع صوت أنفاسي بصورة تدريجية، حاولت أن أنتهي سريعًا، وفي نفس الوقت شعرت بخوف أن أري ما أبحث عنه، حفرت وفي دقائق معدودة فيها تكفل رفشي بجعلي أري ذلك الوجه مجددًا، تسمرت في مكاني، تيبست يداي، حتي لم أعد قادرًا علي أن ألتفت بالنظر إلي الوجه، أنفاسي ترفض أن تقوم بدورها المرسوم لها في الطبيعة فلا تدخل أو تخرج، جسدي قد تسمر مكانه وفشلت محاولاتي لتحريكه ، العرق يتصبب من كل مسام جلدي، تخيلت الشمس تقف فوق رأسي يغلي منها نفوخي، تبخرت سوائل جسدي وبحركة آلية مددت يدي، بدأت في إزاحة تلك الأتربة ودموعي تتساقط تبلل ذلك الجسد الملفوف في كفن تحول إلي لون بني قاتم، الرائحة لا تطاق والجسد متحلل، لكنني لم أشعر بأي اشمئزاز فاقتربت من جثمان زوجتي طبعت علي وجهها المتحلل قبلة طويلة تحسست بيدي سائر أجزاء جسدها المتهالك، ظللت علي حالي حتي تذكرت أن الوقت قد أزف وحان موعد النهوض، فحملتها مغطيًا إياها بقطع من قماش أبيض، أخذت طريقي نحو المعمل فذلك اليوم هو اليوم المحدد لإعادة بناء الجسد المتآكل.

المكان : مختبر إعادة البناء الجيني

الزمان: الأول من فبراير2062

بوجه مغبر وعيون امتلأت بأتربة أحالت رموشها للون رمادي. دفعت الباب بقدمي حاملاً بين يدي عينة تجربتي، بمجرد أن دخلت حتي تسمر الحاضرون، كل في مكانه، توقف بهم الزمن وظلت أبصارهم شاخصة جاحظة لا تتحرك، ولا تري أمامها سوي ما أحمله بين ذراعي، دقائق من

السكون لم يقطعه سوي صوت غليان إحدي القنينات المستخدمة في إجراء التجارب، فهرعوا إلي يحملون عني تلك العينة فقد تثاقلت علي حملها، ناولتهم إياها وأنا علي يقين أنهم سيقومون بالعمل المطلوب علي أكمل وجه، لقد اخترتهم لتلك المهمة، وأنا أعلم أنهم سادة البناء الجيني وأحد أفضل الفرق العلمية القادرة علي تحقيق خيالي، من خلفي جاء صوت أعرفه جيدًا ليقول لي:

- فعلت المستحيل لتصل إلي المستحيل.

التفت ورائي لأجد "سعيد" بنظراته واقفًا وقد عقد ذراعيه أمام صدره، وينظر لي نظرة لائمة، حاولت أن أشتت تفكيره حتي لا يفكر في أن يقنعني أن أعيد النظر في تلك التجربة، فقمت بنفض ذرات التراب العالقة علي يدي وملابسي بسبب طول بقائي في المقبرة، وبينما كنت أمسح بيدي أسفل قدمي إذ به يميل تجاه أذني يهمس فيهما بما اعتاد أن يذكرني به ما بين وقت وآخر:

- لا تنس أنك تخالف الواقع ، سأكون دومًا في انتظارك.

غادر دون أن ينتظر ردًا مني فتابعته بعيناي حتي اختفي لأجد أمامي خالداً وقد دخل من الباب، صافحني ثم تساءل:

- هل أحضرت العينة؟
- بالتأكيد
- زوجتك؟؟
- وكيف علمت بذلك؟!! تساءلت في اندهاش

ابتسم و قال:

- لقد أصبحت كتابًا مفتوحًا أمامنا، لم أعلق علي تلك العبارة، وبالتحديد عندما تحدث عن نفسه بضمير المتكلم الجمع" أمامنا "فتساءل ثانية:
- وهل يعرف دكتور سعيد بذلك؟
- لا لم يعرف فقد غطيت وجهها و لم ير منه شيئًا
- أسمح لي أن اسألك سؤلا يلح علي
- تفضل
- لمَ اخترتها بالذات؟ وأنت تعلم أنها تجربة غير مضمونة النتائج؟
- اخترتها لأنها ستكون عينتي الأولي والأخيرة في حال إذا فشلت، هي اختبار واحد غير قابل للتكرار، إما أن يستفيق الميت ويستيقظ من نومه الابدي وإما أن يظل متشبثًا بذلك العالم المظلم، قد نحيي الموتي وقد نعود إلي منازلنا نحكي فقط عن وهم عشناه سويًا حتي صدقنا أنه حقيقة لكنه وفي لحظة اختفي، تحدثت بانفعال شديد استشفيت ذلك من ملامح خالد الذي ظهر علي وجهه تأثر شديد بكلامي، نظر لي نظرة، حقيقةً لم أفهمها ثم تركني و ذهب ليتخذ مكانه.

المكان: المختبر الفيدرالي

الزمان : 15 مارس 2062 (اليوم ذكري زواجي وهي مصادفة مقصودة).

الاستعدادات الأخيرة بدأت تجري علي قدم وساق، دوي صوت نداء إلكترونى في المكان ليعلن عن الاستعداد النهائي للقيام بها، الاحتياطات كانت قد اتخذت لكي لا تفشل فهي لم تكن تقل خطورة عن مثيلاتها من التجارب والتي اعتدت أنا وخالد أن نقوم بها من حين لآخر، فلا حدود للعلم.

دلف سعيد من باب المختبر، لم يكن يعلم أنه قد دعي لحضور تجربة الاحياء والتي لم يكن لديه أدني علم عن آلياتها بعد، وحين رأي الجميع علي

أهبة الاستعداد للعمل تساءل في دهشة عن تلك التجربة وفكرتها، لم أرد عليه فبداخلي كانت رغبة جامحة لأن أنفجر من الضحك عندما أتخيل ملامح وجهه حين يسمع عن تلك التجربة فآثرت أن أرفع الحرج عن نفسي وكلفت خالدًا بأن يتولي الشرح عوضًا عني معللاً ذلك بانشغالي في تجهيز أدوات الحماية.

- يا دكتور سعيد الفكرة بسيطة جدا، هذه الفكرة قديمة قدم الانسان علي الارض بل لنقل أنها صنيعة شيطانية منذ أن كان آدم يحيا في الجنة.

استرسل خالد في حديثه وبدأ بتلك المقدمة مما جعل سعيدًا يشعر بالضيق فهو كأي عالم يتلهف علي معرفة ما يحدث فتدخلت في الحوار ملقيًا قنبلتي منتظرًا أثر ذلك الانفجار

- باختصار "سأحيي الميت" .

لقد كانت لتلك الكلمة نفس الوقع السئ الذي توقعته، واعتدت أن أراه علي وجه سعيد كلما حدثته عن تلك الافكار التي صارت تطرق عقلي مؤخرًا، تساءل بدهشة وغضب وحيرة ويأس تعودتها منه كلما استمع إلي وقال: وما هي فكرة الاحياء؟

- يتكفل تلميذي بمتابعة الشرح بينما أتابع خطوات التجربة

مجددًا تقدم خالد ليبدأ الشرح للدكتور سعيد: قام بتعديل نظارته لكونه وبدأ الحديث قائلاً:

- التجربة باختصار هي عملية إعادة إحياء خلايا الجسم باستخدام شحنات من الكهرباء علي دفعات محددة.
- فقط كهرباء؟
- بالطبع لا، فقد استخدمنا مسرعًا لنمو الخلايا حتي نصل إلي زيادة عدد الخلايا المُنتجة في الثانية الواحدة، وهو ما يضمن لنا تجديد

نشاط الجسد من جديد، بل وتعويض ما قد تلف نتيجة الموت، بالاضافة إلي استخدامنا الاشعاع النووي لإرغام تلك الخلايا علي البقاء علي حالها فلا تعود إلي حاله موتها من جديد.

- ومن أين أحضرتم تلك الجثة؟ و من وافق علي ذلك؟
- الدكتور حاتم تكفل بأمر الجثة، استخرجها وباستخدام بعض من البقايا البشرية وإضافة السليكون وغيره من المواد التي تتشابه إلي حد كبير في تركيبها العضوي مع تركيب الجسد البشري ثم استطاع بمساعدة فريق العلوم الجينية أن يعوض ما قد تهالك بفعل الدفن.

نظر له الدكتور سعيد وعلي لسانة سؤال قد استشف إجابته لكنه أراد التأكيد، إلا أنه وقبل أن ينطق بالحديث قال له خالد:

- ما تفكر به صحيح، هي جثة زوجته.

كان من المفترض أن يصاب بالدهشة لكن توقعه لمثل هذا الامر قد سهل عليه أن يتقبله بل ورسم علي وجهه ابتسامة بسيطة كمن أصبح يعلم بالأشياء قبل حدوثها.

حان وقت العمل فناديت عليهم حتي نباشر ما نقوم به فاستأذن خالد من الدكتور سعيد و لحق بي حتي نبدأ.

أصدر الصوت الالكتروني تنبيهًا للحضور بأن التجربة سوف تبدأ وعلي الجميع الابتعاد عن المكان المخصص لها حتي لا يتعرض أي فرد من أفراد الفريق لخطر الاصابة بصدمة كهربائية قد تؤدي لعذابه بالتأكيد ليس لموته، وضع الجميع نظاراتهم الواقية علي عيونهم اتقاءً لشر الاشعاع الضار، ثم مرت لحظات أضيئ فيها المعمل بذلك الضوء الخاطف للنظر بعدها أعلن الصوت الالكتروني عن بدء التجربة.

- تم شحن الخلايا بنجاح....
- الخلايا تسجيب للشحن وفي انتظار المرحلة الثانية.

الاطمئنان يسري في قلبي تجاه المرحلة الأولي من التجربة فنظرت إلي خالد ليضغط زر العمل للمرحلة الثانية والاخيرة من العملية، وكأنه قد ضغط علي زر ليبعث في جسدي ذات النبضات التي أصبحت تلاحقني مؤخرًا، انتفضت و انهار جسدي وفي ثوان معدودة رأيت تلك الصدمات الكهربائية وكأنها تغزوني أنا، ليس هناك وقت لأن أذهب من ذلك العالم فحاولت أن أتشبث به بقدر المستطاع فتعود الخيالات أمام عيناي لأجد أشخاصًا لا أعرفهم، يرتدون ملابس غريبة عني ويتحدثون باهتمام بينما ينظرون إلي ويضعون أيديهم علي رأسي يبدو أنني ملقي علي سرير ما، أغمضت عيناي علني أستعيد الواقع وهو ما حدث... بالفعل فقد عدت لأري المرحلة الثانية من التجربة و قد بدأت، لا أحد يهتم بما حدث لي وكأن الامر لم يكن يحدث من الأساس، الجميع ينتظرن في ترقب نتائج تلك التجربة... دقائق معدودة حتي عاد نفس الصوت من جديد ليقول:

- تمت التجربة بنجاح، ميعاد الكشف علي العينة بعد اثنتي عشرة ساعة، رجاءً الالتزام بتعليمات السلامة حرصًا علي الجميع.

مازلت في مرحلة الصدمة؛ خالد ينظر لي بفرح ويقفز في الهواء فأنظر إليه وأنظر إلي سعيد الذي وقف محدقًا دون أن تطرف له عين، اقترب مني وأنا مازلت في تلك المرحلة من اللاوعي، قال لي بصوت مختنق من دموع إليأس، يأس من فشل في اقناعي بالعدول عن تنفيذ تلك الافكار:

- لن تنعم بما فعلت، ثق بي يا صديقي وحتمًا ستكون في حاجة لعون أقرب الناس إليك، لذلك سأكون في انتظار ندائك حين يصل إليك اليقين بأنك لم تكن أبدًا علي صواب.

صُمم المعمل كغيره من المعامل ليأخذ شكلاً مربعًا وفي أعلي الحائط الايمن منه تواجدت نافذة وقف من خلفها مجموعة من العلماء الحاضرين لتلك التجربة، نظرت إليهم ففوجئت بوجود الدكتور عبدالحميد الذي وقف ينظر لي، لم أكن قد وجهت له دعوة للحضور أو بالاحري كنت أقوم بالأمر دون علمه، حاولت أن أتجاهل نظراته نظرت ثانية تجاه سعيد فرأيته يغادر المكان وعلي وجهه تلك العلامات من الاسي، أما فريقي ممن كانوا في المعمل فقد تعالت صرخاتهم بالفرحة، لم أتمالك نفسي وفوجئت بهم يحملونني احتفالا بنجاح تجربتي، فقد عاد الميت إلي الحياة، لو علم القدماء بذلك ما جعلوا إلهًا للموت أو حتي فكروا فيه، حينها فقط شعرت بأن الجنون قد أصابني فظللت أقفز في الهواء كالمخبول "أنا الان أحي الميت، أنا الان أحي الميت" صرخت بتلك العبارة مرارًا حتي وقعت علي الأرض أتدحرج دون أن أشعر بأي خجل، والجميع ينظرون لي في اندهاش من فرط ما أفعل رغم أنني لم أقم بمثل تلك الأمور من قبل، لكني لم أتمالك نفسي، وتجاوزت عن ألمي الذي لم يشعر به أحد ممن كانوا بجواري.

أصبحت ربًا للحياة، منحتها للميت، لست مسيحًا دجالا ، لكنني مبشر ورسول لحياة أبدية، موتاي بل وموتي العالم بأسره أصبحت لديهم تلك القدرة علي أن يحيوا من جديد.

عادت سكينة قلبي وعرفت طريقًا للهدوء، شعرت بأنني شخص آخر، حقيقة لا أعلم ما حدث لي، فقط سيطر عليّ هدوء مفاجئ، بحثت في جيب بنطالي عن شئ لم يكن يفارقني أبدًا، كلما بدلت ملابسي حملته معي دون نسيان، لقد أصبح موجودًا معي؛ بل جزءًا من حياتي، ساعة يدها التي كانت ترتديها وقت أن ماتت، أخرجتها من جيبي، نظرت لها مليًا، شعرت بأنه لم يعد ضروريًا أن أهتم بالوقت، بالتحديد منذ أن لفظت أنفاسها الاخيرة حتي أعدتها إلي الحياة مجددًا لقد أدرت عقارب الساعة إلي الخلف ووصل بي الأمر إلي تحدي الزمن، بل وتحدي المنطق والحياة بأكملها، عقارب تلك

الساعة في يدي كانت قد توقفت عند الواحدة وعشر دقائق بعد منتصف الليل، وهو توقيت وفاتها، وكأنها قد حزنت عليها، تذكرت تلك اللحظات وما تلاها من أيام، لم أعرف كيف مرت، عدلت توقيت الساعة ثم قررت أن أرتديها ولو مؤقتًا حتي تسنح لي الفرصة لأعطيها إياها، لن أفعل ذلك إلا بعد إعطائها مصل الحياة، فعقلي لن يحتمل أن تتوقف تلك الساعة ثانية.

المكان: غرفة العناية المركزة بالمعمل الفيدرإلي

الزمان :السادسة من صباح يوم 16 مارس2062

من خلف حاجز زجاجي وقفت أتأمل تلك المرأة، زوجتي قبل أن تموت، لم أطق الانتظار في مكان أبعد من غرفة مجاورة لغرفتها فنيران تشتعل في قلبي قبل عقلي لترغمني علي الوقوف صامتًا أمامها، فقط لأراقب قسماتها، لمدة قد تزيد عن عشر ساعات كاملة وقفت علي قدمي لم أشعر بالألم، ومع ذلك فالوقت لا يمر فتتحول الساعة إلي دهر كامل يأبي أن يمضي ليفسح الطريق لما بعده من أحداث، أما عيناي فقد تحولتا إلي خرز من شمع لا يتحرك، ولا ترمش بأي حركة تكون، وفجاة تبدل كل شيئ وتحول من نقيض إلي آخر، الجسد الذي مات من قبل ودفن تحت التراب يعود مجددًا إلي الحياة، ذراعاها تتحركان وتحاولان أن تتشبثا بشئ مجهول في الهواء، وفم تتلعثم شفتاه بطريقة لا إرادية فلم يكن قد تحرك منذ فترة ليست بالقصيرة، تخرج من جسدها أنابيب خاصة بالتغذية لمحاولة استعادتها للنشاط بمجرد أن تستفيق، ففي تلك المرحلة جسدها لم يكن يتقبل أي نوع من الغذاء عن طريق الفم، وما إن بدأت روحها تعود الجسد المنهك حتي أسرعت وفتحت الباب لأدخل لأشاهد تفاصيل عملية الإحياء والرجوع إلي الحياة، ملأت الدموع عيناي، ولم أدر ماذا أفعل، أنا العالم الخبير بتلك الأمور، وقفت أتأمل ما يحدث كأنني أرقب زهرة برية في طور الازهار والتفتح، بمجرد أن أفاقت تمامًا حتي هاجمت عقلي أسئلة لم أعرف لها جوابًا ، لكن أصعب أحساس

شعرت به أنني أعرفها ولا أعرفها... أيكون الموت قد فعل بها هذا؟ لقد غابت براءة ولمعان عينيها ولم تعد روحها سابحة تظهر علي وجهها، يبدو أن أيامها تحت الارض كانت كفيلة لتحولها إلي شخص آخر، لتجربة الموت خاصية فريدة، لم يعد منها من يقص علينا ما حدث إلا أنها عادت، أصبحت جسدًا دون روح، تلك الاسئلة لا أستطيع أن أبعدها عن عقلي، أعجز أمامها عن السيطرة علي نفسي، أن أقنع عقلي بالاستجابة لي، هل دفنت روحها تحت التراب كما دفن جسدها أم أن الإحياء اقتصر علي جسدها فقط دون سواه؟! الافكار تراودني، ومع ذلك فالوقت مازال مبكرًا، رغم انطباعي الاول لكنني سأظل أبحث عنها، لن أيأس أبدًا حتي أجد من سعيت لأجلها بطرق لم تخطر علي بال بشر.

المكان: القاهرة، إحدي المصحات النفسية

لم يكن والد المريض علي دراية بتلك الحالة التي وصل لها ابنه، مر بأوقات عصيبة، هكذا يخبره الجميع، بدأ الأمر بنوبة من صرخات لا يُحتمل سماعها، ليس لقسوتها بقدر ما هي لشدة عمقها فتشعر أنها تأتي من الأعماق لرجل قد كسر في حياته، مصحوبة بهذيان وهرطقة بكلمات عن الموت وكيف أن الحياة لابد لها أن تستمر وألا تنتهي، نظر الرجل إلي الطبيب المعالج، لا يقوي علي الحديث، فهو لا يفهم ما وصلت إليه تلك الحالة، في هذه اللحظة دخل أحد الاطباء إلي المكتب نظر له الطبيب ثم نظر إلي والد المريض و قال له معرفًا به:

- أحد المشرفين علي حالة ابنك.

هم الرجل أن ينهض إلا أن المشرف رآه فاقترب منه راجيًا إياه ألا يفعل حتي لا ينال منه أي تعب.

- حضرتك والد المريض؟

- بالضبط يا بني؟
- أحك لى ماحدث بالضبط...

صمت الرجل فأجابه الطبيب قائلاً:

- الحالة تسير في اتجاه انفصام كامل في الشخصية، صراع بين شخصين يقطنان بدنًا واحدًا .
- أتقصد مثل مستر هايد ودكتور جيكل؟؟

غاص الطبيب لبعض لوقت في تفكير عميق حول صواب أن يذكر التشخيص قبل أن يتأكد منه، لحظات حتي عاد لوعيه وقال:

- ما ذكرته ليس صحيحًا مائة بالمائة فانفصامه معركة عقلية لا عراك فيها، شخصيتان في جسد واحد تحاول كل واحدة منهما أن تجد لها مأوي، لكن الغريب في الأمر ما نراه في عينيه فبرغم أننا نري فيهما تلك الغمامة التي لا تختفي أبدًا إلا أننا نشعر أنه يعي ما يراه، يشعر بمن هم حوله، لكن أفكارًا أكبر وذكريات أقسي تسيطر عليه حتي تمنعه من التفاعل الطبيعي معنا.

عم صمت علي المكان، قطعه بين لحظة وأخري تلك الصرخات القادمة من العنابر المجاورة،..استأنف المشرف أسئلته للطبيب المعالج وقال له وقد ظهر في حديثه الاهتمام البالغ:

- هل هناك تشخيص نهائي للحالة؟
- حتي الآن ليس تشخيصًا نهائيا، لكن أعراضه تدل علي أن هناك شخص غير مرئي يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يسيطر علي هذا العقل المهترئ من الاساس .

فرد عليه والد المريض ممتلأً بتلك المشاعر من الحزن والاسي:

- أفضل له الموت علي أن يعيش بجسد دون عقل.

ظل الطبيب المشرف يستمع قبل أن يتلقي اتصالا، غادر علي أثره؛ لكنه قال للطبيب:

- دون لي ملاحظات، وأرسلها إلي مكتبي، تلك أمور لا تناقش هكذا.

غادرهم فعرض الطبيب علي والد المريض أن يقوموا بزيارة ابنه في غرفته؛ كي يطمئنوا عليه، اقتربوا من غرفته والتي لولا الاهتمام البالغ بحالة ابنه لما خصصت له بمفرده نظرًا لكثرة ذوي الرأي والرؤى ممن رأهم الناس مجانين والذين وفدوا علي المستشفي مؤخرًا، فتحوا الباب قليلاً فوجدوا المريض ينظر إلي الأرض، يبتسم بطريقة غريبة، أسنانه العلوية بارزة وعيناه مغمضتان قليلاً، يقهقه بصوت عالٍ ثم يتوقف ليتحول إلي سكون تام، انتبه إليهم فعاد إلي وضع الصموت، نظر تجاههم ثم نظر باتجاه النافذة إلي لا شيئ، نظر له والده ثم حاول أن يقترب منه يحتضنه بشدة لكن الطبيب جذبه خارج الغرفة فلا يضمن ردة فعله، خرجوا وتركوه ثم توجهوا لغرفة الطبيب.

المكان : استراحتي الملحقة بمركز الأبحاث

الزمان : بعد التجربة بعشرة أيام.

في شئ من فتور داخلي أصبح يتسلل إلي نفسي، جلست أمام شرفة غرفتي، في مختبر الأبحاث لأراقب غروب الشمس، ما أراه الان سوف أراه غدًا بل وبعد غد، سأراه حتي تقوم قيامتنا.

لم أعد متحمسًا لشئ أقوم به، عدا تجاربي التي تعطي لحياتي بعضًا من الحيوية والنشاط، أحاول تطبيق أفكاري، اكتشفت خطأ تجربتي الأولي ورغم ذلك الاكتشاف لكنني لم أجرؤ علي أن أقف أمام مرآتي وأصارحها بذلك الخطأ كي لا أشعر بندم لن يفارقني طالما لن أموت.

أخذت نفسًا عميقًا ثم قررت أن أدون عددًا من الملاحظات المهمة علي الفترة السابقة من حياتي، سأتبع الطريقة اليدوية في التسجيل فأحضرت قلمًا وورقًا أبيض و بدأت في الكتابه:

*النقطة الاولي: أعترف وبشدة أنني كنت مخطئًا فمنع الموت أقسي من الموت ذاته.

*النقطة الثانية: أصبحت أسمع همهمات بين الناس بعدما فقدوا تلك النعمة من حياتهم، أرجح أن ملك الموت ستعود له أهميته وسيصبح أعظم آلهة الفترة القادمة.

*النقطة الثالثة: عادت زوجتي إلي الحياة، وقريبًا سيكون أول لقاء بيننا فهي لم ترني حتي الآن ولا تدري عن تجربتي شيئاً، تظن أنها كانت في غيبوبة، أشعر بخوف لا مثيل له، ودقات قلبي تتزايد باستمرار كلما فكرت في هذا الامر.

بتلك العبارة أغلقت قلمي ووضعته في درج المكتب بجوار أوراقي، الوقت مازال مبكرًا، إلا أنني في حاجة إلي نوم عميق هادئ سوف أجبر جسدي عليه، تلك النبضات تعاودني وإن كانت بشكل أقل فشعرت بخوف أن تجتاحني من جديد فتحولني لخرقة بالية كما هي العادة، سيطر القلق علي نفسي، لكن الامر مر بسلام تلك المرة وفي غضون ثوان معدودة بدأ الاسترخاء يتسرب إلي جسدي فانتقلت من عالم الواقع إلي عالم الاحلام، و نفس المكان المضيئ بلون أبيض لا أدري مصدره أعود إليه من جديد لأجلس أمام طاولة طعام فاخرة تحوي من الأطعمة ما لذ و طاب، أمد يدي في جوع لآكل فأتفاجأ بأنه لم يكن سوي أشكالا بلاستيكية ذات رائحة فاتحة للشهية رفعتها إلي فمي لأمضغها دون جدوي، ثم رفعت رأسي لأجد زوجتي تجلس إلي الجهة المقابلة أمامي، دققت النظر طويلاً، فملامح جسدها غير متناسقة حيث يظهر جسدها دون أي ذراع صعقت من هذا المنظر، نظرت إليها فأجدها تحاول أن تصل إلي طعام قد وضع أمامها وتبحث عن يدين وهميتين لا وجود لهما.

من جديد يلعب مساعدي الشاب دوره في انتزاعي من أحلامي، هاتفه المعتاد يأتي في وقت أريد أن أري ما سوف يحدث، عقلي الباطن لا يريد أن يستيقظ، لكن وعيي كان حاضرًا، فانتقلت سريعًا إلي أرض الواقع.

- يا دكتور، الساعة السابعة، استيقظ
- وضعت السماعة علي أذني دون رد.
- يا دكتور، ستتأخر.

رددت عليه بأنني قد أستيقظت بالفعل وفي طريقي للمركز.

المكان : مركز الأبحاث الفيدرالي

الزمان : بعد تجربة الإحياء بعشرين يومًا

عقدت اجتماعًا مع فريقي البحثي في محاولة مني لكي أعرف آخر مستجدات زوجتي، حينها كنت قد قررت أن ألتقي بها وجهًا لوجه وقررت أيضًا أن يكون لقائي بها ذا أثر يتعدي الرغبة في رؤيتها، بعد أن اطمأننت عليها من شيرين تلك الطبيبة المنضمة معنا مؤخرًا، استشرتها وأخذت منها تقريرًا مفصلا عن حالة زوجتي والذي ظهر فيه:

- بالنسبة للمؤشرات الحيوية جميعها سليمة تمامًا رغم وجود خفقان مفاجئ بالقلب يحدث من حين لآخر لكن لا يؤثر علي العمليات الحيوية للجسم بشكل عام، الأمور مطمئنة إلي حد كبير.
- أما المؤشرات النفسية فتلك هي المشكلة حيث أظهر التقرير الذي أعدته شيرين أن زوجتي تعاني فقدانًا جزئيًا للذاكرة، لا يكمن الخطر هنا؛ بل يكمن في أنها لا تنسي أبدًا ساعة الحادثة تتذكر تفاصيلها وتفاصيل ما تعرضت له من ألم حتي إنها تستنجد وكأنها تموت كلما حدث ما يذكرها بتلك الواقعة.
- الأخطر أنه عندما تحين الواحدة ليلاً تصاب بحالة من تشنجات عصبية يعقبها هدوء نفسي، نفهم أن تلك الساعة ارتبطت بموتها لكن لا ندري لم يحدث لها ذلك .

قررت أن ألتقي بها، ورغم أن الأمر قد يكون صادمًا، لكنه ضروري، وبالفعل رتبت مع شيرين أمر هذا اللقاء وحددنا موعدًا لها.

المكان: حديقة مركز البحوث

الزمان: بعد الإحياء بـ 25يوم (لقاء الصدمة)

راقبتها من بعيد تسير بهدوء غير معتاد ومشية جديدة لم أرها من قبل، تتكئ فيها علي لا شئ كأنها تخاف من سقوط محتمل، حرصت أن أضع رائحة كانت محببة لنفسها قبل أن تموت، فلعل ذلك يخفف من صدمة اللقاء ويذكرها بي، حملت ورداً ذا لون أصفر، هامت به حبًا واتجهت به إليها، ومن بعيد أشرت إلي شيرين بأن تبتعد رويدًا رويدًا حتي أقترب فتكون بمفردها فقط.

بمجرد أن اقتربت حتي شعرت مجددًا بتلك النبضات... وقد غزت رأسي من جديد، وكعادتها تبدأ من الأعلي وتهبط، وكأنها تسير مع العروق، تتخذها طريقًا لها، ورغم أنني كنت معتادًا عليه إلا أن ألمها تلك المرة قد فاق بمراحل ما اعتدت عليه سابقًا، فعشت لحظات بحق لا توصف وجسدي لم يعد ملكًا لي، ينتقل عقلي ليري أماكن مختلفة وكأنه في رحلة خارج الجسد، فتتبدل تلك الصور وتتحول أمام نظري، حتي رأيتني في مكان غريب عني، وبالتدريج أصبحت جزءًا من هذا المكان. رأيت زوجتي، لكنها تختلف عن تلك المرأة التي أعرفها؛ فوزنها زائد حتي وصل حد الضخامة، وصوت يأتي من مكان ما من العدم، يعلن للدنيا أنها ماتت، وانتقلت إلي بعد آخر بخلاف ما نعيش فيه، فاجتمع الناس ليحملوها لكنهم انفضوا ثانية فلم يبق بجواري سوي سعيد وحفار القبور واثنان لم أتبين لهما ملامح، أو بالأصح لا أعرف ما صلتهما بالأمر، فلم أهتم كثيرًا فقد انصب اهتمامي حول التكفين والدفن وبالفعل بدأت تلك المراسم، لم توضع في تابوت كباقي الجثث بل حُملت في حقيبة جلدية ذات لون أسود، دون أن يكون لتلك الحقيبة أية أطراف ثابته تُحمل بواسطتها، لذا اخترت أن أتقدم الحاملين كدليل إلي المقبرة ولأحمل الجزء الأكبر منها، و كذلك حتي لا يكل الحمالون مني، وما إن بدأت تلك

المسيرة حتي بدأ الجميع في المعاناة فظلت تتأرجح يمينًا ويسارًا بفعل الوزن الزائد، وكلما تأرجحت حاولت أن أعدل جنوحها، ومع زيادة الأحمال والضغط انسحب الجميع حتي سعيد لم أجده بجواري، ذلك الوغد الخائن المخادع من كان يدعي الصداقة معي، تحاملت علي نفسي حتي وصلت إلي المقبرة والتي كانت ذات باب ضيق نسبيًا لا يتعدي ربع المتر ففشلت في أن أدخل تلك الحقيبة المحملة بالجثمان، وكلما حاولت أن أحشرها تسقط لتغطيني كسحابة سوداء تخفي من يمر خلالها، ومع امتزاج تلك السقطات المتتابعة بالنبضات التي لا تهدأ، زادت وتيرة التعذيب لجسدي وروحي معًا، فحاولت أن أتشبث بالحياة وقاوم عقلي إحدي رغباته في أن يتوه في دنيا تلك الأحلام البشعة، ففتحت عيني للحظات رأيت فيها زوجتي مما شكل دافعًا لأن أستيقظ وأعود إليها، وكالعادة وبصورة غريبة للغاية لم ينتبه أحد لما حدث فحاولت بقدر المستطاع أن أرسم علي وجهي علامات الراحة، وكأن أمرًا لم يكن حتي لا أخيفها في لقائنا الأول.

التفتت وراءها فجأة كأنها قد شعرت بأحد يسير خلفها، فوجدتني أقف أمامها بكامل هيئتي، لحظات من الصمت مرت رأيت فيها ما لم أراه من قبل؛ فعيناها ذات اللون البني الجميل قد تغيرت ملامحهما، بشرتها البيضاء أصبحت شاحبة بعض الشئ، حتمًا هو الموت اللعين قد فعل بها ذلك، فخرجت من بين شفتيها ابتسامة بسيطة، أما أنا فدقات قلبي المتزايدة بالقرب منها جعلتني لا أستطيع أن أتنفس، حاولت أن أتمالك نفسي لينطق لساني بما يمليه علي قلبي، هو لقاء لم أكن أتخيل حتي في أشد أوقات التفاؤل أن يحدث بيننا، فعجزت عن الحديث أمامها ولم أجد سوي كلمة واحدة أنطقها:

- وحشتيني....

نظرت لي دون فهم، وهي علي حالها، فخرجت من بين جفوني دموع لا إرادية، هنا تحركت قسمات وجهها الجامدة وهمهمت بكلمات غير مفهومة، ثم

اقتربت مني تتحسس وجهي وتتأكد من حقيقته، لم أتمالك نفسي إلا وأنا احتضنها وألثم يديها، أشتم رائحتها التي غابت عني لفترة ليست بالقصيرة.

ابتعدت عنها لتتأكد عيني من حقيقة ما أراه أمامي، صديقتي قبل أن تكون زوجتي أمامي، روحها تائهة بعض الشئ لكنها ستعود حتمًا.

أشرت لشيرين بأن تأخذها لغرفتها، وقبل أن تذهب أملت رأسي لأقترب من أذنيها و قلت لها:

- حمدًا لله علي سلامتك، ارتاحي قليلاً وسأعود إليك.

فظهرت علي وجهها علامات من الخوف فقلت لها:

- لا تخافي أنا معك ولن أتركك تموتين مرة ثانية...

هذه المرة ظهرت علي وجهها علامات من عدم الفهم، هذا أفضل لأشرح لها بالتفصيل ما مر بها في سنوات لم تكن موجود في عالمنا.

ما إن تركتها حتي انفجرت في بكاء شديد لم أفق منه كالعادة إلا علي صوت خالد الذي أصبح بمثابة أخ لي يناولني منديلا لأمسح به عيني .

المكان : الاستراحة الخاصة بي في مركز الأبحاث

الزمان : يونيو 2062 (قبل أسبوع من إعطائها مصل إكسير الحياة)

مرت ثلاثة شهور عشت فيها كما لم أعش منذ فترة طويلة، تنفست هواءً لم يدخل رئتاي منذ أن أبحرت زوجتي(مرغمة) في رحلة موتها.

في البداية اعتدت أن ألتقي بها صباحًا ثم أتركها حتي يجئ المساء فأذهب لأجلس معها، أترك لها الحرية طوال اليوم لتذهب أينما شاءت، بالتدريج زاد القرب بيننا فلم نعد نفترق إلا علي النوم، فهي لا تزال بعد في مرحلة النقاهة، اطمأننت إلي شعورها بالراحة والأمان حتي قمت بنقلها إلي حجرتي فهي رغم كل ما مرت به لا تزال زوجتي.

لأول مرة منذ أن أيقظتها أبيت معها ليلة بمفردنا، صممت علي أن تكون إحياءً لذكري ذهبت، لا بل ذكري ستعود من جديد.

في الماضي عاملتها كأميرة، أما الآن فأعاملها كملكة متوجة لي وحدي، بمجرد أن دخلت حتي انحنيت أمامها راكعًا علي ركبتي متخذًا وضعية فارس من القرون الوسطي يطلب التنصيب من ملكته المحبوبة، فلم تتمالك نفسها من ضحك يشوبه الخجل، وقفت ثم وضعت يدي علي رأسها ألتمس فيها أمانًا مفقودًا لي وحنانًا كدت أن أنساه، لحظات حتي احتضنتها بين ذراعي برفق من يخاف علي قطته الصغيرة، إنها حية ترزق، عقلي لم يستوعب بعد قد أكون في غيبوبة فأنا المصدوم وليست هي.

ليلة لا تنسي، انتهت باستيقاظي علي ضوء أشعة شمس تتسلل من بين ستائر غرفتنا لتداعب عيني، فتحتهما لأجدها بجواري نائمة وكأنها ملاك قد هبط من السماء وضل طريقة فبقي علي الأرض وستبقي كذلك مدي الدهر، لم يتبق سوي خطوة واحدة من مشوار قطعته لأبقيها بجواري ولاتموت أبدًا.

(ملحوظة: حتي لحظة كتابتي لتلك السطور لم أكن بعد قادرًا علي أن أصدق أنها قد عادت إلي الحياة وأصبحت موجودة)

المكان : مختبر الأبحاث

الزمان : قبل ثلاثة أيام من إعطاء إكسير الحياة.

علي غير عادتي قضيت في المختبر وقتًا طويلاً، ولم أنتبه إلي الساعة إلا حين دق جرس الهاتف فجأة لينبهني إلي حياة خارج تلك الأبواب، إنها السابعة مساءًا، أثار الأمر اندهاشي فتلك هي المرة الأولي منذ أن قمت بعمل المصل أغوص في العمل دون الانتباه إلي نفسي ولكن الأمر مهم فأنا أحاول أن أراجع جميع حساباتي بدقة متناهية، فأية تجربة قابلة عندي للفشل إلا تلك، لن أقبل فيها بسوي النجاح.

رفعت سماعة الهاتف لأجدها زوجتي وتطمئن علي، وتسأل عن سبب غيابي ثم طلبت مني أن لا أتأخر، لأن لديها ما تبوح به لي، حاولت أن أعلم منها لكنها رفضت أن تتحدث إلا بعد وصولي، فأنهيت بحثي علي عجل بعد الاطمئنان إلي كل خطواته، ثم توجهت إلي السيارة أركبها بسرعة، فخوفي عليها أصبح هو المحرك الأساسي لتعاملي معها، في الماضي كنت أخاف عليها وأظهر ذلك أما الآن فأرتجف خوفًا عليها وأحاول جاهدًا أن أخفي ذلك حتي لا أكون مزعجًا لها.

في غضون نصف ساعة كنت قد وصلت إلي المنزل، ترجلت من السيارة علي عجل، صعدت سريعًا، يبدو أنها رأتني من الشرفة وأنا قادم ففتحت لي الباب ووقفت أمامه تمد ذراعيها لتحتضنني، تجاوبت معها وسرنا سويًا حتي وصلنا لمقعدين كنا قد خصصناهما في الماضي لجلسات الاعتراف فيما بيننا.

متلهفًا علي سماعها تساءلت في توتر لكنها ردت بالصمت، كررت السؤال وكررت صمتها فأيقنت أن الأمر ليس بهين.

ظهر التردد في حديثها وكأنها تريد أن تخفي ما تقوله لكنها استسلمت في النهاية لنظراتي المتوسلة أن تبوح بما تحاول أن تكتمه عني:

- لا أريد أن أكمل ما بدأته.
- لا أفهم، حقيقة لا أفهم.
- باختصار لن أتناول إكسير الحياة، أريد أن أموت كما كان يموت البشر في الماضي.

قالتها وكأنها سكبت علي رأسي دلوًا من الماء البارد رغم أنني توقعت ذلك إلا أن الأمر فاجأني فتسمرت في مكاني لا أتحرك، ثم قلت لها متلعثمًا في الحديث كطفل يخطو أولي خطواته:

- لكن البشر لا يموتون، ألا تعرفين ذلك؟
- أعرف، وأعرف أيضًا أنه خطأ يجب أن يُعالج.

تساءلت عن سبب اعتراضها فأدارت ظهرها ونظرت باتجاه نافذة الحجرة وقالت:

- لأنني شعرت بما قد يحدث، سيتعذب البشر، أعدك أن ذلك سيحدث

حاولت أن أنفي قائلا :

- لن يحدث.
- أنت لا تُصدق سوي ما تريد تصديقه، عندما يجد الناس أنهم في احتياج للموت ستكون أنت الضحية الأولي لهم، لن تكون ضحية فقط بل متهمًا مذنبًا يطالب الجميع برأسه.
- لن يحتاجوا للموت.

- لا لا لا سيحتاجونه، بل سيتوسلون طلبًا له، وأظن أنهم يفعلون ذلك الآن.
- لست مقتنعًا بما تقولين

صمتت قليلاً كأنها تستجمع أفكارًا تهاجم بها من جديد ثم قالت:

- لقد رأيتني وأنا أموت، موتي كان هو الخيار الأفضل، لم أكن لأحتمل أن أعيش متألمة دون الموت، حين تظهر تلك الحالات ستكون عدوًا للكثير من هؤلاء المساكين، أتركني أمت كما ولدت، هي نهاية لا نعرف موعدًا لها لكننا نعرف أنها حتمية.

لم أدر بماذا أرد عليها ففوجئت بها تقترب مني تقبلني طويلاً ثم مالت بفمها علي أذني تهمس قائلة:

- لا تجبرني في يوم من الأيام أن أكون عدوة لك، صدقني فيما أقول.

تلك الآفة المسماة بالحب حين ترتبط بشخص ما تستنشق منه رحيق تلك الحياة العذبة فتصاب بسكر الهوي، تأخذ منه الروح كما الجنين يرتبط بأمه بذلك الحبل السري لا ينقطع إلا بالانفصال، فاستسلمت لها ولو لبعض الوقت.. وأصبحت ما بين مطرقة و سندان فلا هي تريد أن تحيا أبد الدهر ولا أنا أرغب في أن تموت ثانية وأبقي دونها وحيدًا، حاولت أن أقنعها لكنني أيقنت أن الحديث سوف يعود من جديد إلي قضيبن متوازيين من خطوط سكك حديدية لا يلتقيان، وهذا هو شعوري الدائم عندما أتحدث مع أي شخص لا يفهمني أبدًا، فأحاول أن أقنعها بحجة فترد علي بأخري دون كلل أو ملل. كانت نهاية النقاش صارمة من جانبها، فهي ترفض أن تعيش إلي الأبد وتصر علي حقها الطبيعي في أن تحصل علي ميتتها الخاصة حتي و أن تأخر وقتها أو تقدم، لا يهم، فالموت له موعد قد حدد سلفًا.

الزمان : صباح اليوم المخصص للتجربة.

انتقلت بها إلي غرفتي في مركز الأبحاث وقد وافقت بلا أدني خوف، فهي تعلم أنني لم أجبرها علي شئ في الماضي ولن أفعل في المستقبل، لثلاثة أيام قبل الموعد المحدد للتجربة حاولت أن أقنعها بشتي الطرق، أعلم طبيعتها فهي ترفض ما يفرض عليها، تظن أنه استهزاء بها، كثيرًا ما واجهتني متاعب معها بسبب هذا الأسلوب حتي قبل موتها، ابتدعت طرقًا لإقناعها حتي إنني أحضرت لها نموذجًا لزوجين قررا البقاء معًا إلي الأبد، قررا أن يعيشا معًا دون موت يفرق بينهما، ذلك مثال وغيره طالبتها بصورة غير مباشرة أن نحتذي به، لكنها وللأسف صممت علي أن تنتظر الموت متي شاء أن يأتي، فأتركها ثم أذهب وأتحدث إلي نفسي فإحساسي بها لم يعد موجودًا كما كان في السابق، قد يكون ذلك نابعًا من غضبي لرفضها أن تعيش معي أبد الدهر، وقد أكون مخطئًا.

وقفت أمام المرآة لأتفحص ذلك التجعيد الذي أصبح يشق الجانب الأيمن من وجهي وكأنه قد رسم علي خدي، ليس عموديًا لكنه بصورة مائلة و لو بزاوية صغيرة يظل متخذا ذلك الطريق حتي يصل إلي أعلاه فأراه ينحني بصورة حادة ليتخذ له موضعًا تحت عيني اليمني، علي امتداده أري تلك النقاط الحمراء الداكنة التي خيل لي من أول وهلة أنها تميل إلي السواد، لكنها ذات لون أحمر قان تشبه في ترتيبها مع ذلك الخط ريشه طاووس يزهو، استيقظت في أحد الأيام لأراه وقد صمم أن يعمق نفسه؛ يحفر لذاته مكانًا في ذاكرة حياتي قبل أن يكون في ذاكرة جسدي، ظل يتسع دون انكماش حتي أجبرني علي شراء مرآة مقعرة لتكبره أمامي كي أستطيع أن ألقي عليه نظرة وأتابعة بين حين وآخر.

أحد الأيام الأخري التي استيقظت فيها متأخرًا، بعد أن غصت في نوم عميق نهضت متوجهًا إلي تلك المرآة والتي وضعتها بمواجهة نافذة غرفة

نومي، نظرت إلي تجعيدي، تحسسته بيدي، شعرت بوخز غريب في أسفل ظهري، ورأيت ما أثار فزعي، تلك المرآة تعكس عينين تنظران لي، شعرت بالرعب فالتفت سريعًا ورائي، لم أجد أحدًا، فزاد رعبي وفي نفس السرعة عدت لأنظر إلي المرآة من جديد حدقت فيها كثيرًا حتي وصلت إلي الحقيقة فتلك مرآة تكبر الأشياء حتي استطاعت أن تعكس وجه فتاة تقف في نافذة تقع في بناية تقابل تلك البناية التي انتقلت لها حديثًا، كنت من عشاق الأدوار العليا فاخترت الطابق الحادي عشر للسكن، ومع مرور الوقت وكثرة رؤيتي لتلك الفتاة أصبح الأمر معتادًا لي، وإن كنت أشعر في أحيان كثيرة أنها تتفحصني بنظراتها التي تعكسها مرآتي، لفترة ظل الوضع علي هذا الحال حتي خطرت لي فكرة أن أراقب من يراقبني، أحضرت نظارة معظمة، بدأت في المراقبة،..في البداية لم أكن أري أحدًا إلا أن شيئًا بداخلي جعلني أركز النظر أكثر، أراقب أكثر، أنتظر أكثر، وبالفعل بدأت أجني ثمار تلك المراقبة، هي فتاة لم أستطع أن أحدد لها عمرًا بسبب بُعد المسافة بين البنايتين، ظهرت حينًا واختفت حينًا، وقت ترقب ظهورها لم يكن يمر في حين أن وقت مراقبتي لها كان يمر سريعًا، انحسرت حياتي في تلك النافذة فلم أعد أري حياة خارجها، انشغلت كثيرًا بتلك المراقبة وزاد اهتمامي بها لدرجة أنني لم أعد اتابع تجعيدة وجهي كما كنت أفعل سابقًا، لفترة أخري استمر الأمر علي هذا الوضع حتي استيقظت في أحد تلك الأيام التي لا تنسي من كثرة الألم، شعرت أن وجهي يتآكل فهرعت إلي المرآة لأنظر إلي خدي فأجد ذلك التجعيد وقد زاد اتساعه مغطيًا كامل خدي الأيمن، بل وزحف علي أنفي ليتخذ له مكانًا أعلاها، ارتديت ملابسي علي عجل كي أذهب إلي أحد الأطباء، وبينما أنا في طريقي للخروج من غرفتي ألقيت نظرة أخيرة علي هذا التجعيد لأجد وجه الفتاة وقد ظهر واضحًا أمامي، بمجرد أن نظرت إليه شعرت بألفة غريبة، أعرف ذلك الوجه، لكنني لا أتذكر أين رأيته، حالة يمر بها كثير منا، أنساني ذلك الأمر ألمي فأحضرت نظارتي، وأغلقت أضواء الغرفة وبدأت في المراقبة، نظرت إلي ذلك الوجه الذي لا يتحرك وتلك الابتسامة المصحوبة بنظرات توحي

بالسخرية، أري عينيها بوضوح، أعرف أنها لا تنظر لي لأنها حين فعلت شعرت بذلك، وجدتها وكأن نظراتها تخترق جسدي، تعريني تمامًا، تراجعت إلي الخلف كي أهرب منها حتي اصطدمت بشيء خلفي، نظرت فرأيتها أمامي، انقطعت الكهرباء في وقت لم يكن من المفترض أن تنقطع، حل الظلام علي الغرفة عدا ضوء بسيط يأتي من أحد تلك الأماكن والتي إن حاولت البحث عنها فلن تجدها أبدًا، الضوء يعرف طريقًا واحدًا فيهبط علي وجهها عاكسًا عينيها وضحكتها الساخرة، وكأنها ستظل علي ذلك الوضع أبد الدهر، تمكن الخوف مني حتي سيطر علي، وفي خطوات مرتبكة تراجعت إلي الخلف، ليس هناك سوي تلك النافذة، إن تراجعت أكثر حتمًا سأسقط وإن توقفت فهي تتقدم نحوي دون تراجع منها، تحاصرني بتلك النظرة فتتحول إلي شيطان قادم لسلب روحي، أغمضت عيناي وفتحتهما مجددًا عسى أن يختفي هذا الكابوس دون جدوى، فهي مازالت مصرة علي أن تتقدم، مدت يديها إلي جسدي وفي سرعة خاطفة حملتني وبذات نفس السرعة ألقتني لأجد نفسي ريشة في مهب ريح تتقاذفها، أحاول أن أتشبث بشئ ما، للأسف لا جدوى، فأسلمت نفسي مغمضًا عيناي، لا أريد أن أري جسدي يهوي مهشمًا علي الأرض ورغم ذلك الرعب لكن أحساسًا داخليًا تسرب إلي عقلي، جسدي سوف يرفض أن يموت، لن يتنازل عن الحياة بسهولة فشعرت حينها بوخز كلمات تخترق أذني، استيقظت وبالفعل وجدت نفسي من جديد علي أرض الواقع، نظرت إلي الساعة كانت تشير إلي السابعة صباحًا، لم أجد زوجتي بجواري، أعرف أنها تستيقظ مبكرًا عني، ورغم ذلك الرعب الذي حل بي من جراء ذلك الكابوس لكنني لم أجد أفضل من تلك الفرصة، فأخرجت من أسفل وسادتي ذلك المظروف الذي يحوي خطابي لها، تلك هي آخر محاولة معها، وضعت لها ذلك الخطاب تحت وسادتها لتقرأه بعد أن أخرج.. أشعر باضطراب شديد، فواقعي يؤلمني أما أحلامي فتؤرقني، ليس أمامي سوي الانتظار ولا شئ سواه.

ملحوظة (كتابة الخطابات هي إحدي عاداتي التي أتبعتها قبل أن تموت وذلك في حال إن أردت أن أخبرها بمشاعري تجاهها حيث لا أري نفسي بارعًا في الحديث)

حتي ذلك إليوم الذي خصص للتجربة كان رفضها قاطعًا وبشدة لتلك الديمومة، لكنني لم أكن قد فقدت الأمل، سأحارب إلي النهاية، فاليأس هو الهزيمة، من قبل كانت جميع التحاليل قد أثبتت أنه اليوم الملائم لأعطائها المصل كي تعيش أبد الدهر كما خططت أنا سابقًا، حين أيقظتها من الموت لا أعرف لم شعرت بالخوف يتسلل إلي داخلها، رأيت ذلك بمجرد أن نظرت إلي عينيها، لم أهتم كثيرًا فخوفها مني اعتبرته دربًا من دروب الخيال وأعتبرت الأمر لا يتعدي هلوسات منها، سرعان ما ستجد طريقها إلي الاختفاء، صعدت لأجلس معها، أحتك بها، لأتابع محاولاتي التي لا تيأس، فوجدتها جالسة أمام شرفة الغرفة تتأمل في لا شئ ثم بدأت تقرأ بصوت خطابي مسموع، ابتسمت في البداية وأعرف أنها ستفعل فهي عادتها عندما تقرأ مقدمتي الرسمية التي أقول فيها" تحية طيبة وبعد" ، مع كل سطر تقرؤه كانت تظهر علي ملامحها انفعالا ت واضحة وبشدة.

"زوجتي الحبيبة ، تحية طيبة وبعد، قد يكون الزهد في الدنيا ضرورة لكن الزهد في الحب حرام مطلق فلايتفق ذلك وقواعد الكون القائمة عليه، هكذا آمنت حين رأيتك أول مرة تأملت نظراتك وأوحيت لنفسي بحبك الأبدي، راقبتك كثيرً فحفظتك أكثر من أي شئ آخر، عرفت أنك تستمتعين بموج البحر الأزرق حين يمر أمامك وتشمين رائحته اليودية، تخافين النهر، تلتوي أمعاؤك جزعًا حين يفيض ويتقلب، لكن لا تكرهينه كما لم تفعلي مع أي شئ غيره حتي إن آذاكِ، عيناك تلتمعان برؤية الليل الحالك كسوادهما، نعم أعرفك وأعرف عنك أكثر من أي أحد آخر، أول لقاء بيننا وأول حديث دار أعطيتك حينها قلمًا وكراسًا، تركتها كي أستعيدها منك وحتي تلك اللحظة بحثت عن كلام فلم أجد حاولت أن أخترع كي أسمع صوتك النقي النبرة العذب

الحروف، مازلت أحتفظ بقميصي الأحمر، حتمًا تذكرينه وتذكرين تلك البقعة الدائرية حين قذفتني بحبيبات الرمل المختلطة بالماء، أبتسم حين يقع نظري عليه وأعرف أنك تفعلين الآن، ليلتنا الأولي خوفك الخجول ورغبتي إليك اتحدتا بلمسات لوهلة اعتقدتها أبدية لكن الموت كان هو الخصم الأقوي، أريد أن أتحدث إليك عن نفسي أحدثك عن معاناتي بعد رحيلك ليس بدافع الأنانية بل رغبة مني في أن أظهر لكي كم تألمت كثيرًا لفقدك، موتك أعجز جسدي عن النهوض والحركة أصبحت أسير كميت حي، أشرب، آكل دون أن يكون لي رغبة، أتنفس في ملل من تلك العملية الحيوية التي كنت أتمني ألا تتم، لم أشعر برغبة في الحياة حتي عاد لي الأمل حين أيقنت فقط بقدرتي علي أن أستعيدك من جديد حينها خفق قلبي، ولا أطلب منك سوي أن تعيشي فقط أن تبقي لا ترحلي عني، أرجوك أن تبقي، أبقي كي تبقي الأرض علي حالها، كي نحقق أحلامًا ونعيش أيامًا حرمنا الموت منها، أبقي من فضلك".

قرأت تلك الرسالة وسرعان ما بكت بدموع حارة كما لم تبك من قبل، ثم اقتربت منها في خشوع ناسك يتعبد، التفتت لي فرأتني أمامها أحتضنتها بشدة حاولت أن ألتحم بها وأن أجعل خلايانا واحدة لا فرق بينهما، أيكون هذا اختراع جديد ربما فجنوني بحبها قادني إلي تحدي الخيال والا نتصار عليه.

أرغب في البقاء بجوارك، قالتها وقد زادت بيدها تعلقًا برأسي التي ضمتها إلي صدرها ملأت رائحتها أنفي فتذكرت ليالي الحب بيننا إلا أنني رفعت رأسي ونظرت إلي عينيها قائلاً:

- لا أريد لك الموت.
- كيف تخالف سنة الله علي الأرض؟
- لو علم أنني سأخالفها لم أكن لأنجح في التوصل إلي ذلك العلاج، تلك هي أرادته وأنا فقط أنفذ ما رُسم لي.

- موت البشر في يده فقط، أنت لست إلهاً تعطي الحياة لهم، أعرف أنك أيقظتني وأعرف أنك منحت الحياة الأبدية لبشر ظنوها نعمة، لكن الله دائمًا ما يتدخل، لن يترك الأمور تسير دون حساب.

بإنفعال قلت:

- أنت لا تفهمين شيئًا، لا تعرفين ما مرت به، كيف لا تقدرين أوجاعي؟

قلتها منفعلاً بشدة ثم واصلت حديثي وأنا أهتز داخليًا من الانفعال:

- لن أعيش بدونك ثانية، فلن أحتمل تلك الأحاسيس مجددًا.

يبدو أن انفعالاتي قد زادت، وطفت علي وجهي، فلم أعد قادرًا علي كتمانها أو حتي التظاهر بعدم وجودها، فنظرت لي بخوف وهي أول نظرة خوف واضحة أراها في عينيها حتي قبل أن تموت، يبدو أنني لم أكن مخطئًا حين قلت إن الموت قد غيّرها.

شعرت بالاستفزاز، كيف تخاف مني؟!!، فاقتربت منها لأهدئها وبين لحظة وأخري وجدت نفسي ممسكًا بيدها حتي ظنت أنني سأجرها جرًا لإعطائها المصل، لا أعلم كيف وصل لها ذلك الإحساس فجذبت نفسها بعيدًا عني وركضت مسرعة تحاول أن تهرب من المركز، فهرعت وراءها وقلبي يحدثني أن مكروهًا سوف يحدث، وقفت أمام باب المركز لأراها تهرول في رعب كمن يهرب من نيران الجحيم، عاد الزمن ليتوقف من جديد، سيارة اندفعت من المجهول مسرعة لا تخشي علي أحد من الموت، تجهل أن كائنًا وحيدًا علي هذا الكوكب قد يموت، وتجهل أنه زوجتي، صدمتها ليطير جسدها إلي الأعلي فتحول إلي خرقة بالية لا تصلح للحياة مجددًا، ثم هوت خامدة لا روح فيها ولا حركة، تسربت دماؤها حول جسدها مكونًة بحيرة دائرية من سائل أحمر لزج ذي رائحة نحاسية، أيكون ذلك أحد تلك الأحلام

التي لا تغادر نومي، لثوانٍ فكرت في الأمر، تمنيته دون جدوي، لكنني حين أدركت الواقع لم أتحمل ما حدث لها فأغشي عليّ في الحال.

المكان : غرفة العناية المركزة بإحدى المستشفيات

الزمان: يونية2062

ما بين نوم واستيقاظ تلتقط أذناي حديثًا يدور ما بين تلميذي وصديقي.

- يا دكتور أصبح الوضع خطيرًا، وحياته علي المحك.
- لن نستطيع أن نقوم بشئ حتي يستفيق.

غاص الصوت مجددا مبتعدًا إلي الأعماق، ومرت بي أيام غبت فيها عن الوعي، استيقظت بعدها في منتصف ليل يوم لا أعرفه، تلفت بعيني يمينًا ويسارًا لأجد خالدًا قد اتخذ من الكرسي علي يمين سريري فراشًا له، بصعوبه حاولت ايقاظه، فالكلمات تخرج متقطعة لا تماسك فيها، ويبدو أن حاسته السابعة تعمل بكفاءة، فلقد فتح عينيه وما إن رآني حتي تهلل فرحًا، اقترب مني وقبّل رأسي ثم وضع وسادة خلف ظهري لأعتدل في جلستي، ثم أشرت له بكوب من الماء هرع لإحضاره وبعد أن تجرعته بدأت بالسؤال المعتاد لكل من يستيقظ من إغماءة طويلة:

- ماذا حدث؟
- غبت عن الوعي لمدة شهر كامل، الحادثة كانت صعبة وعقلك لم يستطيع أن يتحملها.

نظرت له بعين ملأتها الحسرة والأسي علي ما فقدته ثانية ثم تابع حديثه:

- زادت مشاكلك
- أي مشاكل؟
- تحولت زوجتك إلي رمز.

يبدو أن تلك الكلمة قد فاجأتني فسعلت بشدة من فرط المفاجأة والتعب بينما واصل هو حديثه:

- كانت زوجتك قد ماتت عندما أغمي عليك، لم تتوقف تلك السيارة حين صدمتها، ما حدث جعل السائق يعود أدراجه، فقد كان الأمرغريبًا بالنسبة للناس، فانتشر علي نطاق واسع ذلك السؤال: "كيف ماتت؟؟"
- وماذا حدث بعد ذلك ؟
- تطوع أحد المارة لتصوير الجثة، وتدريجيًا بدأ الناس في طباعتها، ثم تظاهروا بها مطالبين بأن يموتوا مثلها.

ضحكت في سخرية ثم قلت:

- أغبياء، رفضوا نعمتي!
- المشكلة لم تنته بعد، بل بدأت للتوّ سلسلة منها
- أي مشاكل؟

تحول تظاهر الناس إلي سخط عام ساعدهم علي ذلك حالة الغضب العارم ضد نظام الحكم فرفعوا شعارًا وهو:

" إذا لم يكن هناك موت فما ضرورة الحياة "

- والنتيجة؟

obeikan.com

- صدر أمر من الحاكم العسكري بالقبض عليك وتقديمك إلي المحاكمة

أصابتني الدهشة حين ألقي خالد علي مسامعي هذا الخبر السيء، فأي عذاب قد ألاقيه، وعلي أي ذنب اقترفته، لم يجبر أي إنسان علي هذا العلاج، الأمر كان راجعًا لهم ولقرار اختاروه بمحض إرادتهم، فتساءلت عن سبب انتظارهم تلك الفترة دون القبض علي؟

- أقنعهم الدكتور عبد الحميد بتأجيل الإمساك بك حتي تستفيق وبعدها يستجوبونك أمام هيئة علمية.
- القذر، قلتها بغلّ واضح، يريد أن يعرف سر إكسير الحياة ويطوره لنفسه.
- للأسف جميعنا يعرف هذا الأمر، حتي الدكتور سعيد، لكننا لم نكن قادرين علي التصرف من دونك.

استيقاظي لم يكن كاملاً، هكذا علمت من المحيطين بي فيما بعد، فقد رحلت للمرة الثانية في غيبوبة أشد قسوة من الأولي، أصبحت لا أحتمل ضغوطًا تفوق احتمالي، فاستسلمت للنعاس لأغيب عن الوعي.

obeikan.com

المكان: قصر الحاكم الفيدرإلي

الزمان : يناير2063

في غرفة كبيرة وقف الحاكم تلك المرة مفاوضًا لا رئيسًا، حين زاد حنق المحتجين علي الوضع القائم احتجوا وتظاهروا ثم اعتصموا حتي تمكنوا من اقتحام قصر الحاكم وقبضوا عليه، مطلبهم الوحيد هو تسليم فريق العلماء ممن اخترعوا ذلك الدواء، إلا أن الكارثة تم تفاديها بتدخل كبير وزراء الحاكم، الذي وضع اقتراحًا هدأت به الاعصاب.

"يتم القبض علي فريق العلماء المخترع للمصل وبالأخص صاحب الفكرة الأولي ومالك براءة اختراع هذا المصل وتقديمهم لمحاكمة عاجلة؛ انتقامًا منهم في حين يتم البحث عن أحد العلماء ليقوموا بعمل مصل مضاد ليتمكن الناس من الموت بهدوء"

وافق الطرفان وقاموا بالتوقيع علي الاتفاق علي الهواء مباشرة، فانتشر خبر البحث عن الدكتور حاتم العالم صاحب الفكرة الأولي والاختراع الذي كان وبالا عليه وعليهم، أصبحت قيمته كبيرة لدي مواطني الشعب؛ حيث سيكافأ من يقوم بالقبض عليه أولاً بمنحه أول جرعة دواء تعيد له نعمة الموت، انقلبت الكفة وتحول الحاكم من مطارَد إلي مُطارِد يكرس كافة جهوده ليساعد شعبه.

المكان : مركز العناية المركز بالمستشفي الإقليمي

الزمان : أواخر يناير و بداية فبراير2063

(هذا الجزء أكتبه علي لسان خالد)

لم أنتظر وصول المصعد فهرعت صاعدًا درجات السلم المؤدية إلي الطابق المخصص لمرضي العناية المركزة، بمجرد أن وصلت إلي غرفة حاتم حتي رأيت شيرين تتحدث مع أحد الأطباء لتطمئن علي الوضع الصحي لحاتم.

في دهشة تساءلت عن سبب قدومي بهذه الصورة، إلا أنني أشرت لها أن تكمل حديثها مع الطبيب، بينما أعبئ رئيتاي بالهواء، أشعر بالاختناق من ذلك الموقف، أنهت حديثها علي عجل، ثم التفتت تجاهي متساءلة في هلع عما حدث فأجبت قائلاً:

- حياة الدكتور حاتم في خطر
- ماذا حدث؟!

في خوف شديد قلت:

- رأيتهم أمامي، استمعت لهم وفهمت مطالبهم والآمهم، لن ننجو لن ننجو، حاتم أضاع الجميع، لن نعيش بعد الآن في تلك الراحة التي وعدَنا بها، لقد تخطي الأمر الإنذار الأحمر، ارتجفت وأنا أقول ذلك.

فحاولت شيرين أن تهدأني:

- أهدأ يا خالد، وأحك لي بالتفصيل ماذا حدث.

- في طريقي إلي المعمل كان لابد أن أسلك ذلك الطريق الذي يمر بقصر الحاكم الفيدرالي، فرأيت المحتجين في اعتصامهم المعتاد في الساحة، أوحت لنا وسائل الإعلام أنهم سينفضون إما آجلاً أو عاجلاً، لم ينقلوا لنا الصورة كاملة، لكنني حين مررت بهم أصبت بصاعقة وصدمة من تلك التي لا تفيق منها بسهولة، وعندما أفقت قررت أن أري أكثر، فاقتربت منهم فلا أحد يعرفني، التحمت بهم وأصبحت واحدًا منهم أرفع يدي مثلهم، أهتف بأصواتهم حتي إنني آمنت بأفكارهم - ولو لبعض الوقت- لم يكن هناك سبيلٌ، لن يتراجعوا، وكلما مر الوقت عليهم زاد الصوت الصادر منهم حتي لم يعد هناك إمكانية لأفرق بين أصوات الرجال من النساء، لم يصمتوا سوي بصعود شاب للمنصة ممسكًا في يده ذلك العلم الأبيض المرسوم عليه صورة زوجة حاتم، وقفوا يستمعون إليه، يهللون أحيانًا، يرفعون أيديهم مطالبين بالحرية و قد فعلت مثلهم" :
"أعطونا حرية الحياة، أعطونا حرية الموت"

بتلك العبارة استأنف الشاب حديثه، وفي لحظة ما صمت وبدأ في البكاء ثم قال:

- لا أريد لكم ولي ولأولادنا أن نواجه ذلك المصير، قالها فصعد إلي جواره طفل يرتدي قناعًا أبيض، أزاح الشاب القناع ليكشف عن وجه لامثيل له في التشوه وتساقط اللحم عن العظم، حتي لتراه أمامك مسخًا، يبدو أن الطفل كان فاقدًا للنطق فلم يتحدث واكتفي بالوقوف بجوار الشاب الذي عاود خطابه قائلاً:
- في الماضي كنا لقمة سائغة لهم، تلاعبوا بنا فهيأونا لحياة دائمة لا موت فيها، ألهونا بها، لكنهم وكعادتهم كانوا كاذبين كاذبين كاذبين.

عاود الجمهور صياحه ورفعوا أيديهم مؤيدين له ولخطابه الحماسي ثم قال:

- طرحوا الأمر للاستفتاء ،ضللونا بأن الحياة ستستمر، والموت سيزول والشباب لن يغادرنا أبدًا، والألم سينتهي، فهرعنا إلي صناديق الاقتراع حتي عندما حاول أحد العقلاء أن يشرح لنا استحالة أن يحدث ذلك، كنا نعامله بطريقة فظة بل وصل الأمر إلي اتهامه بالخيانة، لا نريد شاذًا بيننا، لا نريد مريضًا أو خائفًا أو حتي شخصًا يحتاج لعلاج، نريده مجتمعًا بلا موت أو عجز، لكنهم ضللونا، ثم استعملونا فيما بعد لراحتهم فسخرونا للقيام بساعات عمل إضافية بحجة أن الموت قد انتهي، رحبنا بذلك حتي اكشتفنا أن الموت لن يأتي، لكن ألم الحياة سيستمر، وأن الشباب الدائم لا وجود له، هل نقبل ذلك؟!! فردوا عليه في صوت واحد:
- لا لا لا
- هل نقبل ذلك؟!!
- لا لا لا لا نقبل.
- لا أسمعكم، هل نقبل ذلك؟؟!!!

في صوت كموج يصطدم بجرف صخري قالوا:

- لا لا لا نقبل، نريد الموت، يجب أن نموت.

فأشار لهم بيديه للتحرك، بمجرد أن قاموا بذلك انسحبت من بينهم كفأر مبتل يرتجف من الرعب، الشوارع المزدحمة والطرقات المغلقة أعاقتني قليلاً وتسببت في تأخر وصولي.

- وهل اقتحم المتظاهرين قصر الحاكم الفيدرإلي؟

- أظن أنهم نجحوا في ذلك.

هرعت باتجاه غرفة مجاورة، ولحقت بها، فتحت التلفاز وأدارت عدة محطات حتي توقفت أمام برنامج إخباري حواري يقف فيه المذيع واضعًا خلفه علامة ثوار الموت، فقلت لشيرين:

- اتخذ الإعلام طريقه، فهم يختارون الجانب الأقوي، وينحازون لهم، لم ترد عليّ، واستمعت لما يقوله الرجل:
- اقتحم الثوار القصر وكادوا أن يصلوا إلي الحاكم الفيدرالي، لقد تعاملوا بشهامة، ولم يعذبوا من قبضوا عليه، توسط كبير خبراء الحاكم، وتوصل الطرفان إلي اتفاق يرضي الجميع.
- ما شروط الاتفاق؟ تساءلت شيرين

وكأن المذيع قد سمع سؤالها فواصل قائلاً:

- يكلف الحاكم هيئة علمية بالبحث عن علاج للحياة الأبدية، علي حد تعبير الثوار "يخلصهم من اللعنة ".

ثم صمت قليلاً، فظنت أن الأمر قد انتهي، وارتسم علي وجهها الوجوم، لكنها عادت تتساءل:

- إذن أين مصدر الخطر؟

فأجبتها بطريقة من يحاول أن يستنتج الأمور:

- يبدو أن المتظاهرين لم يرضوا بالخروج إلا إذا أصدر الحاكم أمرًا بالقبض علي مخترع المصل.

أصيبت بأحباط أجلسها علي الأرض، فمددت لها يدي لتنهض فقالت متساءلة في حزن:

- وهل تظن أنهم عرفوا اسم الدكتور حاتم؟

أجبت بأن الاسم قد تم تسريبه من قبل إذا كانت تذكر، ثم أردفت قائلا:

- لقد رفعوا شعارهم " الموت فوق القانون".

بمجرد أن نطق لساني بتلك العبارة حتي كان اهتزازًا واضحًا قد أصاب وجه الدكتورة شيرين، يبدو أن الخوف أصبح مسيطرًا كليًا عليها، ففي وقتنا أصبح الخوف من العذاب، وتصور طرقه العديدة يفوق أي خوف آخر.

حاولت أن أهديء روعها، لكن أصواتًا قادمة حولت استنتاجي إلي حقيقة وأصابتنا بفزع شديد.

"الموت فوق القانون" " الموت فوق القانون"

"الموت فوق القانون"

هرعنا تجاه النافذة لنري حشودًا تسير تجاه المستشفي في خطوات منتظمة، زاد ذلك المشهد من حدة تفكيرنا، ومن تلقاء أنفسنا علمنا ما يتوجب علينا فعله، ما فكرنا فيه سويًا لن يميته، قد يتعذب قليلاً لكنه عذاب حتمًا سيزول، أما عذابهم فلن يزول أبدًا، تعاونت مع شيرين في نزع ما عليه من أسلاك وغيرها من أشياء تتصل بجسده المُغمي عليه، حملته سريعًا، وكلما اقترب الحشد زاد توترنا، لكن شيرين كانت تعلم أماكن في المستشفي لا أعلمها بسبب عملها الدائم هناك، فاتخذنا طريقنا عبر سلم خلفي، أجلسناه في المقعد الخلفي لسيارتي وانطلقت به مسرعًا لا أعرف أي طريق أسلك سوي طريق الهروب.

طوال الطريق تجنبت النظر في المرآة خلفي، فخيل إليّ دائمًا أن هناك من سينقض علينا، ويبدو أنني كنت محقًا، فبمجرد أن توقفت لأقوم بشراء زجاجات من الماء حتي تعرف المارة علي وجه النائم خلفي، لكن صرخات شيرين نبهتني فتحركت سريعًا لأتخذ من الهروب ملاذًا لنا من جديد.

ما إن وصلت إلي مكان به بعض الأمان حتي خففت من سرعة السيارة كي أحاول أن أتشاور مع شيرين لنري أي مكان آمن قد نلجأ إليه.

- أين سنذهب الآن؟
- يجب أن نبحث عن مكان آمن كي نختبأ فيه.
- كيف نفعل؟ وجه الدكتور حاتم أصبح معروفًا للجميع، والقبض عليه تحول إلي مطلب شعبي؟؟

صمتنا قليلاً حتي قالت:

- ليس أمامنا مكان آخر، علينا أن نذهب إلي هناك.

فتساءلت في نفسي: كيف لم أفكر في ذلك الأمر، مكان آمن وبه كل مقومات الحياة المطلوبة.

- لكننا سنحتاج إلي من يساعدنا؟
- الدكتور سعيد هو أفضل خيار لنا
- ولكنه كان معترضًا علي الأمر برمته، ألا تعرف ذلك؟
- أعرف، لكنه كان صديقًا مقربًا من حاتم، كذلك يملك ميزة أنه لم يتناول المصل بعد، بناءً علي طلبه.

وافقت شيرين علي اقتراحي، لا أعلم مدي صوابه، ولكنني أعلم أنه الاقتراح الوحيد أمامنا، ليس هناك سوي الدكتور سعيد نلجأ إليه.

المكان : مختبر سري لإجراء الأبحاث

الزمان:الأول من أبريل2063

أكتب الآن علي عمق مائتي متر تحت سطح الأرض، أستيقظ عندما أري الشمس وهي تشرق في موعدها، وعندما تغيب يحل محلها قمر مضئ فلا أشعر بوجود اختلاف في ذلك المكان المعزول، وكان هذا هو أحد مميزاته.

صمت رئيس البعثة قليلاً ثم وضع سبابته علي خده الأيمن يداعب بضع شعرات نمت دون أن يعتني بازالتها كعادته.

- المذكرات ناقصة

رد عليه الغريب:

- من قال ذلك؟
- أؤكد لك أنها ناقصة، فهناك فترة ليست موجودة.
- أكمل قراءة الباقي منها فقد تفهم، قالها الغريب، فاستجاب له رئيس البعثة، بمجرد أن بدأ في القراءة حتي قاطعه صوت داليا تنادي عليه لتستأذن بالدخول
- ادخلي.

دخلت و قد تعلق بصرها بالرجل الغريب

- هل تعرفينه؟

- لا، لكن ملامحه أجدها مألوفة، ليست غريبة عني.

ردت وهي مازالت تنظر إلي الرجل الغريب الذي وقف صامتًا دون حركة أو كلام.

استمع لها رئيس البعثة ثم سألها عن سبب حضورها، فلم تجبه إلا أنها نبهته إلي خطورة أن يقرأ مثل تلك المذكرات أمام شخص من خارج اللجنة، فظهر الارتباك علي وجه رئيس البعثة، كيف يرتكب مثل هذا الخطأ بعد كل تلك السنين والخبرة العملية في المواقع المختلفة، فحاول أن يعالج هذا الأمر بأن يدعوها للجلوس معهم، لكنها رفضت، وبعد محاولات مضنية منه وافقت علي مضض، عرض عليها أن تقرأ بدلاً منه، لكنها مجددًا رفضت وبشدة، واتخذت لها مقعدًا، جلست في وضع دفاعي يظهر من تشابك ذراعيها والتوتر الذي ظهر علي وجهها، نظر لها الرئيس وعاود القراءة، فهو لن يفوت فرصة مثل تلك، بمجرد أن بدأ حتي أصيب بسعال شديد لدرجة أن تحول وجهه للون الأحمر فازدادت داليا توترًا وخوفًا عليه، هرعت خارجًا لتحضر له كوبًا من الماء، أعطته إياه، تجرعه علي دفعات ثم بدأ في الهدوء تدريجيًا.

- كدت أن أموت.
- الجو محمل بالأتربة.

قالتها داليا ثم أردفت قائلة:

- تلك متاعب عادية لا تقتل من يتعرض لها.

بينما تحدث تلك الأمور اذ بالغريب هادئ تمامًا، صامت لا يتحرك، ولا ينطق بكلمة واحدة إلا بعد أن أفاق الرئيس فقال له في صيغة الأمر:

- يمكنك أن تكمل الآن.

ثم وجه حديثه إلي داليا وقال لها :

- اجلسي، لا تخافي من شيئ.

نظرت له في صمت ونفذت كلامه دون أي يصدر منها أي ردة فعل تذكر.

أصوات إلكترونية تصدر لتنبه الجميع أن وقت النوم قد حان فذلك المبني قد أُعد ليكون مهيأ بالكامل ليضع الإنسان تحت عوامل طبيعية مثالية حتي يقوم الجسد بكافة العمليات الحيوية.

(ملحوظة لم أكن أعلم أبدًا وأنا العالم الكبير بوجود هذا المكان وكأنه قد وصل إلي درجة عإلية من السرية)

من خلفي جاء صوت أعرفه ليطمئن عليّ، فنظرت لأري شيرين تقف أمامي، أصابني الذهول، وتساءلت عن سبب تواجدها في هذا المكان؟

- الموضوع بسيط جدا يا دكتور، أنا العضوة الطبية في فريق بحثي يتمتع بالسرية نوعًا ما.
- لكن أنا كلفتك بمهمة معينة .

ابتسمت بهدوء وقالت:

- الأصح أن خالدًا هو من وضعني أمامك وأوحي إليك أن تكلفني بتلك المهمة.

عاد الذهول ليظهر مجددًا علي وجهي، وهممت أن أتساءل عن السبب لولا أن أكملت حديثها وقالت:

- منذ وقت قصير أصبح خالد عضوًا معنا، ونتيجة قربه الشديد منك تم تكليفه بمهمة إقناعك أن أكون بجوارك.

بمجرد أن انتهيت عبارتي حتي تذكرت كلمات خالد التي امتدح بها شيرين، وكيف دار في ذهني حينها أنه يميل لها حبًا ويسعي لإبقائها بجواره، لكن يبدو أنني كنت المغفل الأكبر ثم نظرت لها وتساءلت:

- وما هذا المكان؟

تابعت قائلة:

- المفترض أننا هيئة علمية معلنة أمام الجميع، لكن جزءًا من أبحاثنا سرية، وستظل سرية.
- والحكومة؟
- حتي الحكومة لا تعرف شيئًا عن أبحاثنا.
- وخالد، ما دوره في هذا المشروع؟
- تم اختياره ليكون العالم المختص بعلم الجينات وبخاصة الوراثي منها، وهو أحد أفراد فريق يعمل علي مشروع التبادل الجيني للخلايا.

أثار اسم ذلك المشروع انتباهي، لكنني وجدت نفسي وعلي غير عادتي أسال عن سبب اختيار خالد وليس أحدًا سواه حتي أنا، فردت:

- لم يكن أمامنا سوي أنت والدكتور سعيد، وبالطبع خالد، أما أنت فلم يكن عليك خلاف كبير، عالم في تخصص نادر وأبحاثه يتحدث عنها الجميع، وبالطبع يعاني الكثير من البشر من نتائج تلك الأبحاث، لكنك متهور وأبحاثك ليس لها حدود، وهو ما جعلنا نتراجع عن اختيارك فليس مطلوبًا منك أن تصنع مسخًا لتثبت أنك قادر علي أن تجعل

obeikan.com

النبات ينطق، أعتذر لك فقد عرفنا عنك تلك الأمور من قراءة مذكراتك الشخصية المحفوظة في منزلك.

حلّ علي وجهي غضب عارم، كيف وصلوا لتلك الأمور وهي شأن خاص بي، لحظات مرت، انفجرت بعدها قائلاً بصوت عالٍ:

- لكن مثل هذه الأمور تعتبر سرية، ومجرد الاطلاع عليها سرقة في حال إذا لم يختلف تعريف السرقة لديكم.

قلتها وقد افترضت أنها قد تنفعل أو تبدي ردة فعل تحاول من خلالها الدفاع عن نفسها، لكنها ردت بكل هدوء وقالت:

- القانون الأول لدينا: لو أن هناك فرد سيكون جزءًا من الفريق تصبح حياته ملك الجميع، لا فرق بين عام و خاص.

صمتُّ قليلاً ثم تساءلت عن سبب عدم اختيار سعيد.

- هو النسخة المعكوسة منك، فلم نرض به
- لذلك اخترنا خالدًا؟
- صحيح، فخالد كان أفضل ختيار رغم أنه الأصغر سنًا

شعرت بدوار خفيف فمددت يدي لأتشبث بكرسي وجدته بجواري خشية أن أقع علي الأرض، طمأنتني شيرين وفسرت لي الأمر بأنها أعراض حقنة مقوية، لكن لها تأثير شديد نوعًا ما، ثم اقتربت مني وأمسكت يدي حتي وصلت إلي سريري و قالت:

- خذ قسطًا من الراحة ولاحقًا سنتحدث.

استيقظت صباحًا في كامل نشاطي تناولت إفطاري، ثم وقفت أتابع الأخبار، فلم أكن قد تابعتها منذ فترة، لم أجد منها سوي تلك التي تتحدث عن المظاهرات التي بدأت تنتشر للمطالبة بالموت، أذاع التلفاز هذا الخبر، وبدأ عدد من الساسة في تحليلها، لم أقتنع يومًا بكلام هؤلاء السفلة المتأنقين، فليس لهم دور في الحياة سوي الكلام والتنظير بلا طائل، قمت بتغيير المحطة فصدمت بخبر أشد بشاعة، إحدي المتع السادية التي وجدت طريقها ونمت علي السطح حتي انفجرت كدخان بركان أسود لتلوث ما حوله.

شاب تم اختطافه وكان في العشرينات من عمره، عُذب لا لشئ سوي البحث عن لذة جديدة في الحياة، مجموعة من الشباب استمتعوا بكل ما هو متاح في دنيا، اتخذت من "الفاي" رمزًا لها فقرروا البحث عن طريق جديد للجنون ليصلوا إلي نشوة ولذة لم يجربوها من قبل، لم يعرفوا طريقًا إلا بتعذيب أحدهم، أسبوع متواصل من العذاب، فجعلوه يتمني موتًا لن يأتي، أمام ذلك الخبر فقدت رغبتي في متابعة ذلك اليوم، تركت المكان لأقف وحيدًا من جديد أتحدث إلي نفسي:

- يبدو أن الأمور قد خرجت عن السيطرة ووجب التدخل، لكن كيف وأنا مطلوب و بشدة.

من ورائي يأتي صوت شيرين لتقول:

- نعرف ما سنقوم به .
- هل كنت أتحدث بصوت عال؟!

فردت أنها تعرف ما أفكر فيه، سألتها عن الحل وتوقعت فيه صعوبة، لكنه كان من ذلك النوع السهل الممتنع:

- يجب أن نصل إلي مصل مضاد، أنت صاحب الفكرة والوحيد. القادر علي عكس تلك العملية.
- لكنني لا أستطيع الخروج.
- لهذا أنت موجود هنا.

هززت رأسي في يأس، ثم قلت:

- أنت لا تستوعبين شيئًا مهمًا، جميع أوراق الأبحاث في معملي، وأنا لن أذهب إلي هناك لأنه بالتأكيد مراقب.
- أعرف، وأعرف كذلك أنك لا تستطيع أن تتحرك بحرية تامة لأنك معروف، ومن سيراك ستكون صيدًا له.

لم أفهم ما تقوله، لكنني فضلت أن أصمت فقالت:

- إن خالدًا في طريقه إلينا، ثم طلبت مني أن أرتاح قليلاً لأنني سأحتاج لمجهودي فيما بعد.

بمجرد أن وصل خالد حتي ظهرعلي وجهي انفعال لم أستطع كتمانه، تنفست بعمق محاولا أن أهدأ، أن أستريح لبعض الوقت.

- باختصار لا علاج لما نحن فيه إلا علي يديك

وجّه حديثه تجاهي، لمرة أخري شعرت أنهم لا يفهمون وضعي، فأشحت بوجهي بعيدًا، نظر لها ثم قال:

- هي معادلة بسيطة حتي تستطيع أن تعمل بحرية، يجب أن تعمل، وحتي تعمل يجب أن تستطيع أن تتحرك بحرية، ولن يحدث ذلك طالما كنت مطاردًا.

obeikan.com

نظرت له بطريقة بلهاء فأنا أعرف نفسي عندما لا أستوعب الأشياء ثم قلت:

- وما الحل؟

قلتها فنهض من مكانه واقترب مني ثم أمسكني من يدي وجرني كطفل إلي غرفة مجاورة أضاء نورها وقال:

- هنا يا دكتور سوف يكون الحل، أول إنجاز من نوعه، هنا سنجري أول عملية تبديل جيني متكامل.

علي إثر تلك العبارة ظهرت ابتسامتي البلهاء من جديد، فبدأ في تفسير كلامه قائلاً:

- نعمل علي مشروع علمي يعتمد علي تبديل الجينات ما بين البشر
- بمعني؟
- بمعني أنك لن تحتفظ من نفسك إلا بذكرياتك فقط، أما عدا ذلك فسيكون من إنسان آخر غيرك.
- النتائج المتوقعة؟
- نظريًا التجربة ناجحة بشدة حتي الآن، لكن من الناحية العملية ستكون أنت أول من سيخضع لها.

عاد إليّ حس الدعابة فقلت له مازحًا:

- ليس لدي مانع فقد جربت الكثير.

ابتسم خالد وقال:

- منذ أن تعرفت عليك ولم تمزح أبدًا!
- ما تقوله وأسمعه الآن يجعل من الحمار كائنًا متكلمًا.

ثم أردفت:

- متي سنبدأ؟
- يومان ونبدأ، المهم أن تتبع التعليمات بدقة، سأذهب وأعود لاحقًا.

تسألت عن ذلك الشخص الذي سأبدل جيناتي معه، قلتها بسخرية، لكن تلك السخرية تمت مقابلتها بضحكات تدوي في المكان وقال:

- معي يا دكتور، لن يقبل أن يقوم بهذا الأمر مجنون غيري.

ابتسمت ساخرًا، وكدت أن أتحدث لكنني آثرت الصمت.

غادرني خالد وتركني وحيدًا لا أفهم ما يحدث، ظللت أدور حول نفسي تائهًا لا أعرف إلي أين أذهب أو أتوجه، لا أستطيع الخروج، أي حياة هذه التي أجبرت علي أن أعيش فيها، توجهت إلي مكتب مقابل لسريري، وبطريقة تلقائية ظللت أعبث فيه لأتفاجأ بما أكد لي حياة التيه التي أحيا بين طرقاتها؛ أوراقي الصغيرة موجودة ومرتبة كأنني أنا من وضعتها، أعرف ذلك الملف ذا اللون الأزرق السماوي، دائمًا ما أحتفظ فيه بما أريد من أوراق خاصة بي، أقلب أكثر لتزيد مفاجأتي، فالترتيب واحد، أعرفه جيدًا، فظهرت ملامح ابتسامة علي وجهي يبدو أنهم يعرفون عني ما لا أعرفه حتي عن نفسي، كالعادة سأخفف توتري وأكتب:

(لخمسة أعوام عاش بنو اسرائيل في حياة دائمة لا تعرف أي معني للموت الذي أصبح دربًا من دروب الخيال، لقد صار الحديث عنه يثير في النفوس لذة المشتاق إلي الماضي، تلك الحالة القديمة قدم البشر علي الأرض عادت

الرغبة إليها لتحيا من جديد في نفوس المحرومين منها كمن حرم عليه الطعام فأصبح مشتاقًا له، بل قل حالمًا به، ولأن الإنسان لا يرضي فقد بدأت معاناة من نوع جديد لم يكن البشر في حاجة لها، ليزيدوا إليهم نوعًا جديدًا من الألم.

هرع "داود" إلي "سمعان" وعلي وجهه أثر بكاء مرير:

- أنقذني يا "سمعان"، أنقذني يا "سمعان"!

فخرج "سمعان" علي أثر سماعه لذلك الصوت الذي يضج بالألم والحزن:

- مابالك يا "داود"!!
- زوجتي يا "سمعان"، تعاني من الألم

التقط أنفاسه وتابع قائلاً:

- جسدها أصبح لا يحتمل ولا أجد سبيلاً لعلاجها.

نظر له "سمعان" في حزن واضح، فهو لا يعرف كيف يخفف أحزانه، ولأول مرة منذ فترة تجاوزت العام قال:

- يا ليت الموت كان خيارًا فيخفف آلامها.

لكن وعلي عكس المتوقع فقد أثارت تلك العبارة داود، وجعلته ينتفض من مكانه ويقول حانقًا:

- آلامها ستنتهي أما عاجلاً أو آجلاً، أما الموت فلا راحة منه أبدًا.

يبدو أن الأمر لم ينته عند ذلك الحد، فقد زادت الآلام حدة، ومع ازديادها لم تقل أو تنقص الرغبة في الحياة أبدًا، لكن لابد للمشورة أن

تكون حاضرة، والنبي هو الرجل المختار لذلك الأمر، فليس هناك من هو أفضل منه، ذهب إليه "سمعان" مصطحبًا "داود"، دائمًا ما يلجأون إليه عندما يشعرون بأن ظهورهم قد التصقت بذلك الحائط الصلد الذي لا فرار منه، بمجرد أن رآهم حتي عرف ما وراءهم فقال:

- ألم أحذركم من قبل؟ ألم أخبركم بخطأ ما تفعلون؟

رغم أنهم اندهشوا مما قال لكنهم ردوا عليه:

- بلي يا نبي الله، وبالفعل فنحن في ضنك من الحياة.
- عن أي ضنك تتحدثون؟ ألم ألبِّ لكم ما رغبتم فيه؟!!
- لكن الألم لا يحتمل.
- أعرف.
- والموت أيضًا لا يحتمل.

ابتسم نبي الله وقال:

- من قال إن الموت لا يحتمل؟
- خبرناه هكذا.
- إذن لم تخبروا من الأمر شيئًا.
- لم علي الرب أن يعذبنا ونحن عباده؟ تساءل بهذا "داود" ذو العيون المنتفخة من الدموع.
- اصعد له بنفسك وسله ما تريد.
- تعلم أننا لا نستطيع، أتسخر منا؟!!
- ليست سخرية بل أريد أن أخبركم بما أنتم عليه.
- ما نحن عليه لا يحتمل.

obeikan.com

- وفيم ترغبون الآن؟ أتتمنون الموت؟!!

كالعادة يرد "داود" بنفس الإجابة:

- إنما هي شكوى فقط، وليس لنا رغبة في غيرها.

ظهر الضجر علي النبي وقال في انفعال واضح:

- إذن لتبقوا علي ما أنتم عليه من عذاب حتي ترد إليكم عقولكم، بل أرواحكم من قبلها)

انتهيت اليوم من الكتابة، أصبحت أعلم أن الموت قد تحول إلي سلعة متداولة، ويبدو أن بورصته قد ارتفعت أسهمها لزيادة الطلب عليها في تلك الأيام الصعبة، كتاباتي هي انعكاس لما أعيشه الآن وما يحدث معي، لكنني أكتب لخوفي أن أواجه نفسي، أما خوفي الأكبر أن تتحول تلك الكلمات لواقع ملموس كما يتحول الخيال لحقيقة مُرة لا تقبل التغيير.

obeikan.com

المكان: غرفة عمليات التحويل

الزمان: يونيه2062

قبل أن أبدأ في تسجيل بعض الأحداث يجب أن أنوه إلي أن الأمور أصبحت خارج السيطرة تمامًا، فلقد تحولت الحياة من حيوان أليف يقبل الناس علي تربيته إلي وحش أسطوري ينهش رقاب البشر لتخرج منه نافورات من دماء تغطي الأرض وتفيض ورغم ذلك إلا أنني أري أن البشر خيالهم محدود للغاية فكيف لم يستمتعوا، بل قل كيف خافوا، كيف مرت بهم أيام وهم لا يناموم من قلق أصابهم وسيطر عليهم كجن يتلبسهم فيحرك بداخلهم شرور تمتد لتصل حتي لأقرب الناس إليهم؟.

خطوات أقدامي تدوي في ممر طويل ينتهي بغرفة عرفت أنها غرفة العمليات، أسمع دقات ساعة من مكان ما ربما تكون دقات قلبي المرتعدة، لأول مرة أشعر بالخوف لا أعرف علي من فليس علي نفسي أبدًا، أمامي طريقان أن لم أستيقظ سأذهب إليها، وأن أستيقظت فالعمل القادم سيكون حتمًا أن أذهب إليها.

رفعت رأسي إلي السماء أرجو الشفاعة، قد يكون الوقت متأخرًا لكنها قالت لي قبل أن تموت أن الباب دائمًا وأبدًا مفتوح أمام الجميع.

خيالا ت تتراقص أمام عيني وعدد من الأفكار تجول في رأسي فلا أنتبه سوي علي يد توضع علي كتفي تدعمني في حنان.

- جاهز يا دكتور؟

نظرت لها وتنفست عميقًا ثم قلت:

- جاهز يا دكتورة، نستطيع أن نبدأ الآن.

- لا تقلق فالعملية لن تزيد عن ساعتين علي الأكثر، المهم أن تتقبل وضعك عندما تستيقظ.
- مررت بما هو أصعب.

وهنا دخل خالد صافحني بشدة ثم قال:

- أمامنا ربع الساعة، وسأكون بجوارك.

صعدت إلي سرير العمليات ونظرت إلي يميني فوجدت خالدًا يصعد لسرير آخر بجواري، قربوا من أنفي قناعًا أسود رأيته فاستسلمت وأغمضت عيناي لأنتقل من عالم الألم إلي عالم اللاشعور، غبت عن الوعي، إلا أنني استيقظت سريعًا، أشعر أنني لم أغب سوي بضع ثوانٍ قد تزيد قليلاً لتصل لدقائق، ويبدو أنني قد عدت للتفكير بصوت عالٍ من جديد، فلقد اقتربت مني شيرين ووضعت فمها بجوار أذني توسوس فيهما قائلة:

- تلك هي النسبية يا دكتور أينشتاين، الوقت لا يمر حين نرغب في ذلك ويسرع حين نحتاج إليه.

ابتسامة بسيطة ظهرت علي فمي وأنا اسمع جملتها ثم بدأ جسدي يستعيد نشاطه، التفت إلي يميني فوجدت السرير الآخر خاليًا، يبدو أن خالدًا قد استفاق قبلي بوقت سمح له بالحركة والخروج.

هممت بالحركة لكن ذراعيّ لا يستجيبان، هناك ما يقيدهما، فنظرت أسفل صدري لأري بالفعل جسدي مربوطًاً بحزام ذي لون داكن يلتف علي معصمي وساقي فيمنعني من الحركة تماماً، ويشل كامل جسدي، حاولت أن أرفع صوتي بالنداء فوجدت شيرين تأتي مسرعة إليّ لتفك قيودي، أو هكذا تصورت، ظلت تدور حولي تبحث عن شئ ما ثم غابت قليلاً، وعادت بورقة قد كتب عليها بخط عريض

"أبق مقيدًا لا تقاوم، فلن أستطيع أن أفعل لك شيئًا"

- عيناه تتحركان بسرعة، يبدو أنه يمر بكابوس مزعج.
- الله وحده يعلم ما يراه الآن.

التقطت أذناي تلك الكلمات وأنا بين يقظة ونوم لأستفيق بعدها فأجد شخصًا يقف مع شيرين يراقب معها مؤشراتي الحيوية.

- أين أنا ؟

أجابتني في محاولة منها أن تبث فيّ طمأنينة أيقنت أنني فقدتها، فنظرت لها وأنا لا أنسي ما فعلته بي منذ قليل، فهمت ما يدور في عقلي، فالتفتت إلي الشخص الواقف بجوارها وقالت:

- يبدو أنني كنت بطلة كابوسه الأخير.

قالتها ثم اقترب مني هذا الشخص، لا أعرفه، إلا أن وجهه بدا مألوفًا جدا لدي قال لي:

- لا تقلق نحن بجوارك، المهم أن تقوم بسرعة.
- من أنت ؟
- خالد، أنا خالد.

إجابة كان لها وقع الصدمة علي عقلي الذي فضل أن يغشي عليه أو علي أقل تقدير ينام كالأموات.

المكان: المقر السري للأبحاث

الزمان: بعد أسبوع من عملية التحويل

حاولت أن أصارح نفسي، لذا اتخذت قرارًا بأن أحادثها قليلاً، فأنا أحتاج لها الآن أكثر من أي وقت مضي، سأقف أمام مرآتي لأتعري أمامها دون خجل، لن أصارح نفسي إلا لأعاقبها لو كانت مخطئة.

- أنا: الحياة ملذة والموت عذاب.
- نفسي: بل الحياة شقاء والموت راحة.
- أنا: شقاء لمن أرادها شقاء، أما من أراد المتعة فليستمتع.
- نفسي: هي متعة وقتيه تنتهي بانتهاء أوقاتها، أما الباقي من الحياة نجري فيها نبحث عن أنفسنا، نناور ونحاور ونصل ونقع، ثم نحلق عالياً، نبحث عن الحرية، فلم تخلق لنا لنرتاح فيها.
- أنا: لكني خلقت الراحة، وقبِلها الناس طواعيةً، بل وفرحوا بها.
- نفسي: لم يكونوا يعلمون، وعندما علموا تمردوا لأنهم لم يرتاحوا.
- أنا: هم من بحثوا عن الشقاء.
- نفسي: هذه هي طبيعة البشر.
- أنا: وما ذنبي؟
- نفسي: أعطيتهم سببًا له فكان شرارة أشعلت النيران.

شعرت بوجهي يتآكل خجلاً، أحاول كثيرًا أن أتجنب مثل تلك اللحظات، لن أستطيع أن أنظر إلي المرآة بعد الآن، رغم ذلك وقفت أمامها أحاول أن أفتح عيناي دون خجل أو خزي، لساني لا ينطق، فكلما حاولت تحريكه أصابه الشلل، التفت خلفي لأجد شخصًا ما يجلس في الظلام محاطًا بهالة لا يظهر منها، فلا اشارة علي وجوده سواء عيونه أو حتي الجزء الأعلي من

جسده بأكمله، اقتربت منه لأستطلع ذلك الكيان المجهول، فرفع يده ووجّه سبابته نحوي دون حديث، فهمت أنه لا يريد مني أن أقترب منه أكثر ثم بدأ في طرح أسئلة كي أرد عليه:

- أي لعنة أصبت بها البشرية؟؟
- لم يصب البشر بلعنة، بل جلبوها لأنفسهم، أوقعوا بأرواحهم في دوامة من العذاب، لم تعد لهم روح، لقد سلبتهم إياها.
- هم من فعلوا ذلك، حولت الحياة لديمومة، لم يأخذوا منها سوي..... لن أكمل، أنت تعرف بالتأكيد ما حدث.
- ليست ديمومة حياة بل ديمومة عذاب، ستري وتسمع ما لم تره من قبل.

حين قالها شعرت أن عليّ أن أقترب حتي أكشف ظله، إلا أنني كلما اقتربت ابتعد بكرسيه عني حتي غاب في ممر طويل شق من خلفه.

شعرت بالألم يتصاعد بقوة في عنقي، تلتها تلك الأوجاع الجسدية التي اعتادت مؤخرًا علي غزوي كنحل لا يتوقف عن لدغ ضحاياه ممن ألقاهم حظهم العثر أمامه، فارتجفت بشدة وحاولت أن أنهض ثانية، وكلما نهضت كانت تلك الرجفات تزيد، فتحت عيناي بصعوبة، فالألم أجبرني علي إغلاقهما لأجد نفسي أمام ضوء أبيض ساطع، وعيون تحملق فيّ، تتأملني، ذات المنظر يتكرر من جديد ولا أفهم ما يحدث، حذبني أحدهم من يدي، لا أعلم إلي أين، فلم يكن لي حول ولا قوة، يضعونني حيث شاءوا أو يرفعوني كما أرادوا، هكذا تحولت إلي تلك الحالة من الاستسلام العقلي والعضلي، رأيتهم يضعونني أمام مرآة كبيرة بطول حائظ بأكمله، صدمت بشدة فقد رأيت خالدًا أمامي لكنني تماسكت ثم نظرت لتلك المرآة للحظات أحادث المجهول، أشعر أنني انتقلت إلي مكان آخر، لكنني لم أستمر طويلاً، فسرعان ما عدت

إلي رشدي، أنظر حولي لأجدني في ذات الغرفة، لقد كانت إغماءة بسيطة إلا أنني رأيت فيها الكثير والكثير حتي اعتقدت أن محاورتي مع نفسي كانت جزءًا منها فنهضت مستعيدًا وعيي، لكن... دون نشاط.

أصبح جسدي هو جسد خالد والعكس تم معه لكن روحي مازالت تنتمي إليّ أنا فقط دون سواي، أول ظهور لي أمام المرآة شعرت حينها وكأنني أنظر إلي شخص آخر، أحرك يديه وأغمض عينيه، تحولت لطفل صغير يحاول أن يعرف ما وراء تلك الصورة، يحاول أن يدخل إلي ذلك العالم، عندما رأيت خالدًا كانت علامات الدهشة لا تفارق وجهي فعبرت عن ذلك أمام شيرين التي تولد بداخلي حقد عليها لكونها مازالت تحتفظ بجسدها، لم تجبر أبدًا علي تبديله وربما يكون حقدًا علي الجميع ممن يحتفظون بأجسادهم.

- ليس المهم أن تتأقلم علي ذلك الوضع الجديد، المهم هو أن تعمل بسرعة للعلاج.

قالتها... فنظرت لخالد متسائلاً عما سيفعل:

- سأسلم نفسي حتي أبعد عنك الشبهات كي تعمل بهدوء.
- لكنني سأحتاجك معي.
- لن تجد أفضل من الدكتور سعيد، لقد شرحت له الأمر، وقد وافق بشدة علي أن يساعدك.

ثم صمت قليلاً قبل أن يواصل حديثة قائلا:

- رجائي لك أن تنهي عملك سريعًا حتي لا تطول فترة عذابي.

قالها والخوف يرتسم في عينيه، حاول أن يداريه بابتسامة مرتبكة خائفة، لكنه فشل، فأي عذاب قد يلاقي المسكين، هناك بشر لهم أقدار لا تخطؤها

أرجلهم يسيرون إليها، هو اختار أن يضحي ليكون مبعوث عناية إلهية، رغم ما فعلت إلا أنني لم أجرؤ علي القيام بتضحية واحدة، أتعلم من تلميذي ما لم أعلمه إياه طوال حياتي.

المكان: قاعة المحاكمة

الزمان 13 : أكتوبر/ تشرين الا ول 2065 / م.

اليوم هو يوم محاكمتي، لن أكون متهمًا بجسدي، بل بجسد شخص آخر ارتضي لنفسه أن يفتديني ويفتدي البشرية جمعاء، جسدي حر طليق، أما روحي فستمثل في قفص لا خروج منه أبدًا حتي لو حكم علي خالد بالبراءة.

يقف خالد محاولاً أن يدافع عن شئ اقتنع أنه أسوأ من الموت، يواجه النقيض، اختراع باع حياته لأجل القضاء عليه، وفي اللحظة نفسها يجب أن يدافع عنه أمام القضاء بكل ما اؤتي من قوة ليحاول أن يفلت من عقاب لا يستحقه، أي عقاب أقسي من ذلك، وللأسف علي فعل لم يرتكبه قط.

يبدو أن الحياة كانت رتيبة للغاية فمنذ فترة طويلة لم أجد مثل هذا الجمع من البشر، وكأنهم يبحثون عن متعة جديدة ليعيشوها بعد أن زالت كافة متعهم.

أعاقنا الازدحام عن الدخول بسرعة، فشعرت أن الناس تعرفني، بين حين وآخر تتقافز إلي أذني صيحات غضب من الحاضرين حولي تطالب بتطبيق أقصي العقوبة علي الجاني، وإلا كانت العواقب وخيمة.

دخلنا القاعة، اتخذنا مقعدين بجوار القفص الزجاجي، وما هي إلا ثوانٍ حتي دخل المتهم من باب القاعة يحيط به حارسان يجرانه جرًا، دخل فتعالت الصرخات وعم الهرج والمرج.

أجلسوا خالدًا، ووقفوا خلفه لحراسته حتي لا يهرب، لا يعرفون أن أي محاولة للهرب لن تكون أبدًا في صالحه، فالحضور ينتظر منه ذلك الخطأ.

موج يصطدم بحجر، تلك كانت صيحات الناس عندما دخل القاضي ليتخذ موضعه لإكمال تلك الصورة، ما إن دخل حتي أشار للناس بالجلوس ليتمكن من بدء عمله، فانتهي الضجيج ثم جلس هو الآخر وأعطي الإذن بتوجيه التهم لي في صورة خالد.

وقف كبير هيئة المرافعين ليلقي خطبة كان قد جهز لها:

- نبدأ اليوم محاكمة من منعنا ألذ النعم، فتحول كثير منا إلي ذئاب لا تشبع، ووحوش لا ترتوي من دماء ضحاياها، أصبح التعذيب غايتنا الأسمي؛ فلا موت سيأتي، لكن العذاب يظل عذابًا، كم من جرائم ارتكبت وكم من أفعال شنيعة قرر البشر ابتكارها، فالحروب النووية أصبحت من الماضي العتيق بحوار ما قمتَ باختراعه.

قاطعة خالد وقال:

- تتكلم بصيغة المتكلم الجمع، وهو أول دليل برأتي، العيب لم يكن في الدواء بل في مستخدميه، لم أرغب سوي أن أقدم الراحة للبشرية.

يبدو أن هذه الكلمات قد زادت من انفعال كبير المرافعين فقال وقد ملأ الحديث فمه وزاد:

- لابداية بلا نهاية، فأي طريق مهما طال لا يساوي من الأمر شيئًا أن لم ينته.

بيدين مكبلتين حاول خالد أن يحركهما مدافعًا عن نفسه وبصوت مخنوق قال:

- فعلت ما أردت به إراحة الناس.

(ملحوظة: أعرف أنه يقولها دون اقتناع لكن لا سبيل أمامه سوي تلك الكلمات.)

- وافق الجميع علي ذلك الدواء فلم نفرضه علي أي بشر مهما كان، نُبعث علي نياتنا حضرة القاضي لو تعلم ذلك.
- كثير من الأفعال أو لنقل الجرائم ترتكب باسم البراءة، لكن النتيجة واحدة، مذنب.

قالها القاضي وكررها ثلاث مرات متتالية.

لقد كانت تلك آخر كلماته وأتت بمثابة نهاية للمرافعة، وأن يقوم الحراس بوضع قناع من جلد علي وجه خالد حتي لا يتحدث، وهو ما فعلوه بالفعل، ثم جروه جرًا إلي خارج القاعة، وبينما هو خارج أكمل القاضي إلقاء العقوبة كاملة:

- يعذب لمدة لا تقل عن ثلاثين عامًا وقد تزيد.
- يصلب أمام البشر ليكون عبرة لمن يحاول أن يتلاعب بنا

ثم هدأ قليلاً وقال:

- ليكن الله في عون من كان الموت راحة لهم

دق القاضي بمطرقته علي طاولته ثم قال:

- رفعت الجلسة.

خرجت لا أقوي علي الكلام أو حتي النظر إلي أحد، فظلت عيناي تنظران إلي أسفل، وامتد طريقي إلي السيارة إلي ما لا نهاية حتي قال سعيد:

- أنا حذرتك منذ البداية، فلم تستمع تحذيري.
- نحن مغامرو أبحاث قبل أن نكون أطباء، ثانيًا أنا لم أجبر أحدًا علي ذلك الدواء، لقد وافق الجميع ورحبوا بشدة .
- حذرتك كذلك من عبارة "الكل موافق"، لو تتذكر حين قلت لك بأن الناس لا ترضي ولن ترضي.
- لم أتصور أن تصل الأمور إلي ذلك الحد.

آلمني بشدة ما قاله سعيد، فشعرت بتعب مفاجئ، تطور إلي ذلك النبض الذي يأتي حين تسوء الأمور، لكنني أرحب به الآن عسي أن أنتقل إلي عالم لا أري فيه ما صنعته يدي، للأسف الشديد لم يحدث ذلك بل كانت أقل أنواع النبضات شدة، فعدت سريعًا إلي الحياة لأري شيرين أمامي قد رفضت أن تدخل معنا لأنها لن تحتمل، الدموع تملأ عينيها، دموع متحجرة تمنعها أن تنطق، فنظرت لها أحاول أن أخفف عنها:

- لا تقلقي سننقذ خالدًا قبل أن يدخل حكمه حيز التنفيذ.

قلتها ثم نظرت إلي سعيد بعينين تطلبان مساعدة دون أن أتفوه بكلمة واحدة.

لوكانت زوجتي موجودة لارتميت بداخلها، أطلب منها الأمان من خوف يزلزل كياني ليحوله إلي بناء يتصدع، كم أنا في حاجة إليها الآن أكثر من أي وقت مضي.

وصلنا إلي مقر المعمل ثم تركتهم يترجلون من السيارة وتوجهت إلي مكان دفنها حيث أهال مريدوها التراب علي جسدها واتخذوا منها رمزًا لهم، فأقاموا المشاعل حول المكان احتفالاً بالقبض علي شبيهي، لو يعلمون من أنا لأمسكوا بي، واتخذوا من مقبرتها ميدانًا لتعذيبي، لكنني أسير الآن بأمان بفضل خالد، فاقتربت كثيرًا حتي صرت علي بعد سنتيمترات من قبرها، ثم وضعت يدي عليه وأقسمت علي شئ (لن أستطيع كتابته.)

وقفت بعدها أتأمل ذلك المكان حيث ترقد، ثم أخرجت من جيبي ورقة كنت قد كتبتها سابقًا، وضعتها بين الأحجار، انصرفت حتي لا يلاحظ أحد وجودي، من بعيد انتظرت لأراقب إن كان أحد قد رآها، وبالفعل حدث ما توقعت أن يحدث، شابة يبدو من ملامحها أنها في العشرينات من العمر، اقتربت من المقبرة وهي تبكي بغزارة، فرأت تلك الورقة وأخرجتها وبدأت في قراءة المكتوب فيها، فكان تعبير وجهها هو ما توقعته بالضبط، لم أنتظر كثيرًا، فقبل أن أعمل علي تجاربي هناك شئ وحيد علي أن أفعله الآن، فهرعت إلي مقهي في مكان بعيد عن زحام أصبح يسيطر علي جميع الأماكن، لقد أصبحت السامري الذي أغوي الناس ثم تحولت إلي نبي واجب عليه أن ينقذهم، أوراق وقلم وكلمات أخيرة في رواية سأسطرها الآن لأضع لها نهاية قبل أن أبحث عن نهاية لما يحدث علي أرض الواقع:

(علي امتداد القرية بأكلمها أصبحت تلك الصرخات لا تنتهي، لم تخرج من منزل واحد، بل من غالبية منازلها فتحول الألم إلي عادة يومية، هكذا أصبح الوضع بعد مرور خمس سنوات كاملة من الحرمان من الموت،

أصوات لا تُكبح جماحها، وفي كل يوم وليلة يخرج النبي ليلقي نظرة علي قومه، تحمل فيها شفقة ممزوجة بالحزن ويحادث نفسه قائلاً:

- قومي لا يرتجعون أبدًا.

أما القرية فقد ضج أهلها بما وصل إليه حالهم، فاجتمع زعماء القوم في منزل "داود" واتخذوا مقاعدهم ولم يكتملوا إلا بوصول "سمعان"، وقف أحدهم ويدعي "شيلوم" وقال:

- الأمر لم يعد يحتمل، سنواتنا تمر بلا أي تقدم فأصبحنا إلي الحيوانات أقرب.

رد عليه "سمعان" وهو ابن عمه وزوج أخته:

- أصبحت "ميهيرا" لا تطيق العذاب حتي إننا لم نعد ندعو "لباتيا" كما اتفقنا، دعواتنا الآن منصبة علي أن نموت.
- وأنت يا "سمعان"؟

هكذا وجه "شيلوم" سؤاله له، فرد عليه:

- لم أعد أحتمل وأعاني من ألم يفوق الوصف، وأعتقد أن هذا هو حالنا جميعًا.

صاح أحد الحاضرين وقال:

- الرب لا يرضيه.

فرد أحدهم قائلاً:

- ما أدراك بما يرضي الرب وما يغضبه؟ لقد حذرنا النبي وكعادتنا لم نستمع إليه، وهذه هي النتيجة فأصبح أول صوت يعلن معارضته لما يحدث منذ البداية، بل عدم رضاه التام عنه، ثم أردف قائلا:
- امتلأت نفوسنا بحسرة وألم.

ثم زفر أنفاسه غضبًا وترك المكان وغادر.

تحدث تلك المحاورات و"داود" و"سمعان" صامتان لا يدري كل منهما ما يقول أو ينطق، فهم كانوا البداية وعلي أيديهم يجب أن تأتي النهاية، ما إن انتهت تلك المناقشات الحادة حتي قال داود:

- سنصعد أنا وسمعان إلي النبي؛ حتمًا لا ترضيه أحوالنا.

يلمح بعينيه شخصين قادمين من بعيد إلي عريشه، ما إن صعدا حتي حاولا التقاط أنفاسهما ثم تابعا يستغيثان:

- أنقذنا يا نبي الله.... أنقذنا يا نبي الله.

عم الصمت المكان إلا من الأنفاس المتقطعة المتهدجة بالحزن ثم قال "سمعان":

- ندمنا يا نبي الله.
- أعرفتم ما عصيتم فيه ربكم؟
- بلي يا نبي الله.
- وماذا تريدون الآن.
- الموت، ولا حاجة لنا غيره.
- إذن لم تتعلموا بعد.

- كيف لم نتعلم؟
- الأصل أن يأتي الموت في موعده لا أن نسعي إليه.
- ادع لنا ربك أن يبعث لنا ما تراه صالحًا لقومك.

فرفع نبي الله يديه إلي السماء وقال:

(اللهم أرزقهم موتًا يحتاجون إليه، اللهم أجرهم من قحط حياة لا تنتهي).

obeikan.com

المكان: مقر رئيس البعثة الأثرية

عاد السعال ليعرف طريقة إلي رئتي رئيس البعثة فظهر علي وجهه التعب من جديد

- اشرب يا دكتور.

فرفع ما تبقي من كوب الماء علي فمه حتي انتهي منه.

- هكذا ستكون أفضل.

أشار رئيس البعثة برأسه موافقًا ثم تساءل عن باقي المذكرات، رد عليه الغريب:

- ليس لك حاجة بها، لقد انتهت وألقيت أنا كلمة النهاية.

انفعل رئيس البعثة انفعال عالم وصل إلي حد المعرفة دون أن يطرق بابها:

- كيف تنتهي؟!! لم تكن سوي سرد أحداث لو قيلت لطفل لأهملها، أين نتيجتها؟

- النتيجة معروفة دون قراءة.
- لا أفهم.
- لن تفهم لأن عقلك لا يفهم، فهو يأبي أن يتخيل.
- انتهت اللعنة، صحيح؟
- صدق ما تراه .

- ما أراه أن هناك موتي كُثُر، إذن فاللعنة انتهت، لكن أين ذهب خالد؟ وما مصيره؟

في ذات اللحظة اقتربت داليا من المذكرات، وأمسكتها كأنها تشتم منها رائحة للماضي، ثم قامت بوضعها علي المنضدة وربتت علي كتف الرجل العجوز، وبعدها استأذنت في الانصراف لتخلد إلي النوم، تبعها الرجل الغريب ثم توقف وقال:

- هناك أشياء لا يجب أن تراها حتي تصدقها، يكفي أن تؤمن أنها موجودة.

قالها الغريب ثم ذهب باتجاه باب الخيمة وغادر.

توقف رئيس البعثة ليفكر فيما حدث وما أطلع عليه من معلومات لم تتح لغيره أن يعرفها، فقد تؤدي لتغيير كبير في علم تاريخ الآثار الأنثروبولوجية، لكن سؤالا مازال يلح علي رأسه، أين حاتم؟ كيف عاش؟ وهل مات؟ فهرع سريعًا إلي الخارج علّه يلحق الغريب فيحاول أن يضغط عليه أو حتي يستجوبه، لكن للأسف فات الأوان حيث اختفي الرجل الغريب وذهبت آثاره دون رجعة، فشعر بالحزن لدرجة أنه لم يشعر بالرافعة تنهارعلي رأسه، آخر ما رأه هو ذراع حديدية يمتد طولها لأكثر من عشرة أمتار وتزن اكثر من عشرة أطنان تقترب بشدة لتحطم جسده وتسويه بالأرض، فساد الهرج والمرج في المعسكر، وحاول الجميع تقديم المساعدة لرفعها عنه حتي يستخرجوا جثته لكن المفاجأة أبدًا لا تنتهي.

- كيف لم يمت؟
- لا أعرف، فقط رأيت تلك الرافعة تهبط علي رأسه!!

خرج رئيس البعثة من تلك الواقعة مذهولاً، فمثل تلك الأمور لا تمر دون أن يموت من يتعرض لها، لكنه عاش، ورغم ذلك فلم يقبل ما حدث بسهولة، بدأ في تحليل ما حدث وتجميع صور مختلفة ألحت في الظهور علي عقله، فلم يستغرق الأمر إلا دقائق معدودة وهي وقت وصوله إلي خيمته ليستريح من ذهول الموقف، هرع بسرعة إلي فحص المذكرات، قلب صفحاتها فأخرج ما توقعه؛ قصاصة من ورق صغيرة الحجم وقد سبقها عقله في قراءتها قبل لسانه، فقام بتجميع بعض النقاط المهمة التي لم يكن يقبلها منذ أن وجدوا تلك المذكرات، الإمضاء بعنوان شخص مجهول، داليا تبكي بشدة، سعاله المفاجئ وكوب الماء وأخيرًا تلك المذكرات، فأسرع ليفتحها فوجد فيها ورقة قد كتبت حديثًا، قرأ ما هو مكتوب "مرحبًا بك في مجتمع اللاأموات".

ظل ينظر إلي تلك الورقة ويحاول أن يكرر النظر فيها كي يفهم شيئًا من تلك الكلمات المكتوبة عليها، تحمل له الكثير من الغموض والرعب، فحياته أصبحت هي المحك الرئيسي لما حدث وما سوف يحدث وكلما نظر إلي سطورها أصبح كمن ينظر لقعر محيط من الماء العكر لا يري له نهاية، فلا يدري إلي أي مدي وصلت حالته، ويقبض بيده علي تلك الورقة يحاول أن يمزقها وكأنه سيمزق المكتوب فيها وينهي عليه، لكنه سرعان ما يدرك عبث ما يفكر فيه، فالمكتوب قد حدث بالفعل، ولا سبيل أمامه كي يغير فيه شيئًا، لأن الاختيار قد تم والنتيجة أصبحت معروفة وكان هو العينة المنتقاة.

لكن يتبقي أمامه سؤال لا يعرف له إجابة :لِمَ هو بالذات؟

يبدو أنه سوف يظل يطرح علي نفسه ذلك السؤال، ويحاول أن يبحث عن إجابة لتريحه ولو لبعض الوقت، لم يعد الموت هو الخوف الأعظم، هناك من الاشياء ما يفوقه بمراحل ودرجات كبيرة بدرجة لا تصدق.

خرج من خيمته، لاحظ علامات من الدهشة تظهر علي وجه كل من يراه، هونفسه لم يستوعب ان أطنان الحديد لم تقتله، اتخذ طريقة تجاه المنزل حتي وصل وشعوره بالحيرة لا ينقطع، فقطع تلك المسافة ما بين الباب الخارجي حتي الباب الداخلي للمنزل في تساؤل وشعور أنه مراقب، نظر خلفه لم يجد شيئًا، أدخل مفتاح الباب وقام بفتحه دخل وأغلق الباب خلفه لكنه لم يُغلق، وقف قليلاً ثابتًا في مكانه، التفت ليري من شعر أنه يراقبه، قال له:

- انتظرتك، لِمَ لم تخبرني بأنك قادم؟
- لابد من المفاجأة.
- وهل سأعرف؟
- الأمر يتوقف عليك وحدك، استسلم وسلم وستعلم ما تريد وأكثر
- وحاتم، هل أتي معك؟

ابتسم الغريب وقال:

- حاتم لم يعد له وجود، ألا تفهم؟
- ماذا حل به، هل مات أم قتل؟

أزاح الغريب رئيس البعثة من طريقه وسار عدة خطوات باحثًا عن كرسي ليجلس عليه:

- الأيام لا تعطي للمرء ما يريد، أنا أردت الحياة وغيري أراد الموت، ماتوا فعشت، لكنني لم أحصل علي حياة كاملة، ليس فيها مرض.
- تنازل عنها وأختر أن تموت.

قالها رئيس البعثة، فرد عليه قائلاً:

- لا أستطيع أن أتخلي عنها، رغبتي فيها تجري في عروقي، فالمقامر لا تسقط أوراقه إلا إذا أفلس أو مات، لعلمك لست وحدي، نحن مجتمع لا يموت، حاولنا أن نردع حاتمًا عن فعله، لكنه رفض فكان مصيره الموت، هو اختار ونحن اخترنا.
- كيف مات؟!!
- مصمم علي المعرفة؟
- بالطبع.
- العداء بين البشر صفة مغروسة فينا، وُضعت بذورها في عقولنا منذ أن هبطنا علي سطح ذلك الكوكب، الطمع والبحث عن شئ ما لا نعرفه لكننا نريده، هو الدافع الأساسي لنا والمحرك الرئيس لجميع شهواتنا التي لا تنتهي أبدًا ولن تنتهي، تلك الحروب التي قامت والتي ستقوم لا مبرر لها سوي إرضاء ذلك الجانب الخفي القابع في إحدي أشد المناطق ظلمة وقسوة وبرودة من نفوسنا، لا نعرف له اسمًا؛ البعض يسميه جشعًا والبعض الآخر يطلق عليه طمعًا وغيرها من المصطلحات، إلا أنني لا أجد له سوي اسم واحد "الرغبة "، من هذه الكلمة تحولت تلك العلاقة بيني وبين حاتم، اشتعلت بيننا رغبةٌ، كلٌّ حسب ميوله، في البداية لم تكن واضحة، فلم تكن قادرة علي الطفو، إلا أن الأحداث المحيطة بيننا غذتها وأعادتها لتأخذ مكانها علي السطح، حاتم لم يكن شيطانًا علي الدوام، وأنا لم أظل علي حالي ملاكًا فقط، كان لابد لنا من تغيير الأدوار، أن نسدل الستار ونبدأ مسرحية جديدة بقواعد جديدة وسيناريوهات وضعناها نحن دون ترتيب مسبق ودون دوافع تحركنا سوي دافع الرغبة الأحمق الكائن في أرواحنا، حاتم اتخذ قراره بالقبض علي الموت، وأعادته إلينا، أن يسلمه لنا، كما كان دافعه حين اخترع المصل وعملية الإحياء، أن يعيد زوجته إلي الحياة، كان دافعه الأول لاختراع مصل مضاد هو

إنقاذ خالد من وقع ذلك العذاب الذي يتعرض له، لم يهتم بسوي نفسه، حينها قررت أو بالأحري قررنا أن نضع حدًا لهذا العبث، هذا الرجل لا يهدأ إلا حين يجرب علينا كل جديد، ونحن قد سئمنا، كما أن رغبتنا في الحياة أصبحت هي الدافع الأساسي لنا في تلك الفترة، تألم خالد جراء أفعال أستاذه، صمت الغريب قليلاً قبل أن يستطرد قائلاً:

- يقال أن أقصي ما يتعرض له المرء هو ألم الاحتراق، من قال تلك الحقيقة حتما لم يكن يعلم ما سيؤول له وضع خالد، بعد أن أوهم الجميع بأنه حاتم صاحب الاختراع، اقتيد إلي زنزانة مؤقتة لحين تجهيز مكان يليق بمسجون القرن، وذلك كما أطلقت عليه وسائل الإعلام حينها، هذا رجل اعتبره كإبليس يسعي بين الناس بالحياة الأبدية اللعينة، أدخلهم في جحر لا منفذ منه ثم أشعل النيران أمام الباب فإن هم بقوا في الداخل اختنقوا وإن هم خرجو احترقوا، فكان واجبًا عذابه.

التقط الغريب أنفاسه ثم تابع:

- أولي مراحل تعذيبه كانت علي يد المسجونين معه، يبدو أن الإدارة الفيدرالية قد أوحت للقائمين بذلك، بل قد أصدرت أوامرها بأن يتركوه فريسة لأي تحرشات دون أن يقدموا له حماية قانونية، لقد وصل الأمر إلي درجة تسريب أخبار ما يحدث معه في الداخل، لا لشئ سوي ليعلم الناس أن الحكومة تقف معهم في خندق واحد وتتخذ من صفهم طريقًا لها تدعم فكرة الانتقام من الرجل، حتي تهدأ ثورتهم ولو قليلاً، وكان التعذيب مختلفًا ومتنوعًا:

المكان: غرفة الا ستحمام بالسجن المركزي الفيدرإلي.

في اليوم الأول من كل أسبوع اعتادت إدارة السجن علي إجبار جميع المساجين علي تنظيف أنفسهم بالاستحمام بماء بارد، وقد تصادف وصول خالد في ذلك اليوم، كان من المفترض أن يكون وصوله سريًّا لكن بالطبع قامت ادارة السجن بتسريب الخبر، بل سربت له عدة صور في حالة أنه لم يكن معروفًا للسجناء، بمجرد أن وصل حتي تم اقتياده إلي غرفة الاستحمام، ما زاد الأمر غرابة أن خالدًا تم تقييده بسلاسل جعلت يديه تلتفان خلف ظهره، اعتقد في نفسه أن الأمر لا يتعدي كونها محاولة لتفادي هروبة، لكنه سرعان ما أدرك السبب حين وجد نفسه عاريًا، مقيدًا، مسلوب الارادة أمام عدد من السجناء بلغ عددهم خمسة، ظلوا يتقدمون وهو يتراجع حتي التصق ظهره بالجدار البارد، حاول أن يهرب منهم لكنهم حاصروه وأكملوا تعرية باقي جسده فأزالوا ما يستر عورته، لم يعروه وحده، بل كشفوا عوراتنا جميعًا، أهانوه نفسيًا وعذبوه بدنيًا، قاموا بطرحه أرضًا، ثم جروه حتي تمكنوا من ربطه في إحدي تلك المواسير التي ينتهي أخرها بصنبور الاستحمام، وذلك بعد مقاومة عنيفة منه، قاموا بفتح فمه ووضعوا فيه إحدي المشابك المعدنية التي تقوم بتوصيل الكهرباء، أما الطرف الآخر فقاموا بتوصيله إلي مصدر للطاقة، وقبل أن يفتحوا الماء عليه كانوا قد أوصلوا الكهرباء إلي جسده، وعلي وقع صرخاته كانوا يرقصوان طربًا، كاد جسده أن يحترق فتسلل الخوف إلي داخلهم، فخافوا أن يموت من شدة التعذيب فلا يستمتعوا بإطالة مدة العذاب، خوف كان غير منطقيٍّ ودون مبرر لعلمهم أنه لن يموت، إلا أنهم فضلوا الاكتفاء بذلك ولو مؤقتًا، فكوا قيوده، أعادوا سحله مجددًا، وقفوا يبصقون عليه، يبولون علي وجهه، يمارسون معه كافة أنواع الإذلال، ظل علي وضعه حتي انقطعت آهاته من كثرة الإهانة التي طالت جسده ونفسه معًا.

- "حاتم! حاتم! استيقظ.

قالها شخص ما بينما كانت يداه تهزان في جسد حاتم المسجي علي الأرض بعنف وقوة.

بصعوبة وألم فتح خالد عينيه ليجد أمامه شرطيًا من هؤلاء العاملين بالسجن، ابتسم الشرطي في شراسة وقال لخالد:

- لا وقت لدينا لننام.

ولم يكد الرجل ينهي حديثه حتي كانت ضربات قد تساقطت كقذائف معدنية علي رأس خالد، تم ضربه بمُدىً حديدية حتي غاب عن الوعي بفعل الضرب المبرح.

ظهر التأثر علي وجه الرجل الغريب وهو يقص ما حدث مع خالد في محبسه، لكنه فضل أن يستكمل دون أن يعطي لنفسه الفرصة لأن يعيش في الماضي فقال:

- في المختبر السري كانت تلك الأخبار قد وصلت إلي الدكتور حاتم فأصيب بصدمة مما يحدث مع خالد، وصلت شيرين، حاولت أن تبدو متماسكة ولو لوقت قصير، لكنها سرعان ما انهارت باكية بحرقة ومرارة، كيف وافقت أن تشترك في هذا الأمر، كيف أودت بخالد إلي جحيم مستعر، حاول حاتم أن يقوم بتهدئتها، لكنها أمسكته من عنقه وقوة تتنافي مع كونها أنثي هزته بعنف وهي تقول:
- أنت السبب، أنت السبب، يجب أن تنتهي سريعًا من المصل حتي لا يكون عذابك علي يدي أنا.

قالتها بقوة سرعان ما خذلتها فمالت علي يديه تتوسله في ألم قائلة:

- أرجوك، أنقذ خالدًا، وانته من استخراج مضاد المصل سريعًا.

برفق أزاح حاتم يديها، يعرف تمامًا ما تمر به شيرين، فتركها ودخل إلي المعمل مغلقًا خلفه بابه.

- وخالد ماذا كان مصيره؟

تساءل رئيس البعثة فرد عليه الغريب:

- لم يتحمل خالد ما تعرض له من عذاب، غاص في غيبوبة لباقي الأسبوع، اختفي من العالم، ظل علي ذلك الوضع حتي تم حقنه بإحدي تلك المواد المنشطة، استفاق جزئيًا، حُمل وجُر إلي مكان تنفيذ حكمه الأول ليرجم بالحجارة، اجتمع الناس هناك، حتي إنني قد ذهبت إلي المكان بصحبة حاتم وشيرين، قُيد خالد إلي عمود ووضعوا علي وجهه قطعة قماش سوداء، ساعة من الرجم والبصق كانت كفيلة بأن ينهار ما بين وعي وغيبوبة، ظل يتمتم بكلمات لم تكن مفهومة في البداية حتي استطاع أحد الحراس أن يترجمها بعد أن اقترب منه محاولاً أن يسترق السمع "لست أنا، لست أنا، ارحموني " فكوه وحملوه إلي مستشفي السجن، فاعتلت دهشة الوجوه، وظل التساؤل الأبرز، ماذا يقصد حاتم، نظرنا حولنا حتي شعرنا بأنهم قد تعرفوا علينا، وبالفعل حدث ما توقعناه جميعًا، خالد لم يحتمل، أفشي السر، فأذاع التلفاز الرسمي الخبر مُؤيدًا بأدلة عملية، استغل الحاكم الفيدرالي تلك الفرصة، لن يجد أفضل منه لإلهاء الناس وكسب ودهم حتي لا يثوروا عليه، فأصدر أمرًا حماسيًا بالقبض علي حاتم.

بينما الغريب يقص علي رئيس البعثة ما حدث إذا بالباب ينفتح تلقائيًا ليجد رئيس البعثة داليا تقف أمامه، فتساءل عن سبب قدومها وزاد دهشته تمكنها من الدخول دون أن يفتح لها، فنظرت بكل ثقة وقالت:

- أنا واحدة من أعضاء هذا المجتمع.

دهش من وقع المفاجأة، ألجم الأمر لسانه، فأصيب بخرس مؤقت حتي تساءل عن سبب انضمامها لتلك البعثة الأثرية، فأجابته بصورة مباشرة قائلة:

- بطريقة ما استطعنا أن نتأكد منذ فترة من وجود مذكرات مكتوبة تتناول ذلك الأمر السري، فكان الهدف أن نبحث عنها حيث أن وجودها في أيدينا خير لنا جميعًا من أن تقع في يد أحد آخر.
- إذن أين حاتم الآن؟ أعتقد أن وجوده أصبح ضروريًا، أليس كذلك؟

تساءل رئيس البعثة فأجاب الغريب قائلاً:

- عندما علم بأمر القبض عليه كان قد انتهي من بحثه النهائي ليخترع مضاد المصل، بل قد توصل إلي تلك التركيبة الكيميائية وحضّرها، وبعد أن أنتهي هرع إلي قصر الحاكم كي يسلم نفسه ويسلم اختراعه، لكنه بمجرد أن خرج رأي امامه حشودًا من البشر أتت لتلقي القبض عليه، لم يهتم كثيرًا فالرغبة واحدة ورغم اختلاف الوسيلة لكنهم سيقودونه في النهاية إلي القصر، وقد يتحول من مطارد إلي بطل شعبي، لكن منذ متي والأمور تسير كما هو مُخطط لها، فبينما كان يسلم نفسه، ألقيت قنبلة من الدخان علي المكان فأصيب الجميع بمن فيهم حاتم بعمي مؤقت، وعندما عادت رؤيتهم مجددًا، لم يجدوه بينهم، لقد تم اختطاف حاتم، اختطف حاتم مخدرًا إلي مكان لم يعلم عنه شيئًا، وبدون مقدمات طويلة بدأ التحقيق معه:

- أين المصل المضاد؟

لم يجب، فأعاد المحقق سؤاله ثانية، شعر حاتم أنهم لا ينتمون إلي الحكومة الفيدرالية، ففضل أن يصمت، لكن السؤال وللمرة الثالثة أعيد عليه مصحوبًا بصفعة علي وجهه، فنظر إلي صاحب الصفعة الذي قال له:

- لا تريد أن تتكلم حسنًا، أمرك الآن بين يدي، لكن إذا جاء الرئيس ستهلك من التعذيب، ستتمني أن تموت دون جدوي.

لثلاث ساعات متواصلة تم تعذيب حاتم حتي شعر الخاطفون بالملل، فأخذوا قسطًا من الراحة في انتظار وصول رئيسهم.

عادوا له ثانية، بعد ان ابتكروا طريقة جديدة للتعذيب فقد قاموا بوضع أطرافه الأربعه علي الأرض، أجلسوه عاريًا متخذًا وضعية الكلب بعد أن شلو حركته فلم يكن بإمكانه أن يحرك أي جزء من أجزاء جسده باستثناء رأسه، ثم أحضروا كرسيًا ذا أرجل أربعة، وضعوه فوق جسد حاتم وأنتظروا رئيسهم والذي بمجرد أن دخل حتي وقفوا له احترامًا، حيوه بطريقة خاصة بأن جعلوا أيديهم تتخذ شكل مثلث رأسه للأعلي، كان رئيسهم مقنعًا بقناع مزخرف بألوان متعددة، دار حول حاتم في خطوات متأنية متفحصة، جلس فوق ذلك الكرسي الذي وضع علي حاتم، حتي يخيل للقادم من بعيد أنه يجلس علي حاتم نفسه، إذلال آخر لهدم حاتم، بمجرد أن تحدث حتي فتح حاتم عينيه من الدهشة والغضب، كمن لدغته حية مسمومة فسري السم في عروقه، لم يكن سوي سعيد، أصدق أصدقائه، أو من اعتقد حاتم أنه كذلك، فتحول إلي صديق غادر شهواني، والأكثر من ذلك أنه أصبح زعيم المطالبين بالديمومة، وهنا بدأ العذاب ثانية متخذًا منحي جديدًا لم يكن عذابًا بدنيا بل عذاب الخيانة والذل والمهانة، عادت صرخات حاتم تنطلق من حلقه لتهز الأرجاء، لم يكن هناك نهاية إلا بالموت، لكن حاتمًا لا يستسلم يحاول أن يستفزهم ليفعلوا ما يريده،

ذلك رجل يسعي لدرجة من العذاب تؤهله للموت، فنال ما يريد، أخرج سعيد مسدسًا ذا فوهة كبيرة، هدده بأن يشوه جسده، بالأحري رأسه، قد يشجها نصفين، ولن تعود كما كانت، أما حاتم فلم يبد ردة فعل تذكر، فقد ابتلع المضاد خلسة بمجرد أن تم اختطافه، فكما كان أول متطوع للأبدية أصبح أول متطوع للموت، ابتسم في سعادة، فظنها سعيد أنها تحدٍ، فاستشاط غضبًا مطلقًا عليه الرصاص، مات حاتم، مخلفًا وراءه حكاية وإرثًا لمن عاشوا بعده.

هنا قطع رئيس البعثة حديث الغريب قائلاً:

- إذا كان قد مات فكيف مات البشر وهو لم يعط لأحد سر هذا المصل.

فقال الغريب:

- ترك إشارات أوصلت من بعده لمصله المضاد، نحن فقط من فضلنا أن نعيش في سرية، أن نظهر كمن أخذ المصل في العلن لكننا لا نموت في الخفاء.
- وسعيد ماذا كان مصيره؟؟

صمت الغريب للحظات قبل أن يقول:

- يبدو أن جنون الخلود قد مسّه، كما حدث مع آدم من قبله، فصار يهذي بكلام غير مفهوم عن اتفاق تم عقده حتي أودعناه في إحدي المصحات النفسية، ظل يصرخ لاعنًا حاتمًا، ذلك الذي قتله، وخالدًا ذلك الذي عاش حتي يموت.

مرت لحظات غاب فيها رئيس البعثة في تفكير عميق قبل أن يقطع بنفسه هذا الصمت متسائلاً:

- ومن أنت يا غريب، وما دورك في القصة؟!... لم أجدك تذكر نفسك أبدًا، ومن شيرين؟

تساؤلات طرحها رئيس البعثة فرد عليه الغريب قائلاً:

- أنا حامي الديمومة، أصون ذلك المجتمع الذي لا يجب لأحد أن يتعرف عليه، حكايتي تتلخص في سنوات من عمر عشت فيها، لكثرتها لم أعد أعي عددها، كنت سعيدًا دون خلود وحين فارق الموت جفوني لم يعد لاسمي معني في حياتي، أتعلم أن خلودي لم يعد كما قصصت لك عنه، لالا... لقد تجاوزت فكرة المرض والشيخوخة، لم يكن ذلك متاحًا قبل أن أعقد اتفاق الحياة، وما إن عقدته حتي أتيحت لي كافة المتع، وذُللت أمامي العقبات

نظر له رئيس البعثة وقال له : وأي اتفاق عقدت؟

- اتفاق أن أبقي وأن أبحث عن راغبين في البقاء مثلي، أنا حامي الديمومة، والآن لقد انضممت إلينا وحان الوقت لتختار: إما أن تواصل الديمومة ، أو تموت في هدوء وسكينة.

رد عليه رئيس البعثة قائلاً:

- لا أستطيع أن أغير أفكاري بسهولة، من يرفض أن يعيش أبد الدهر فهو آثم وبشدة، حتمًا سأختار ديمومتكم.

فردت عليه داليا: أرجو أن لا تندم.

المكان: إحدي المصحات النفسية

غادر والد سعيد المستشفي، انتهت زيارته المعتادة إلي ابنه، همومه وآلامه بالإضافة إلي كبر سنه زادته جزعًا وحزنًا، ورغم ما يقال عن اكتساب الخبرة بطول العمر وكثرة التجارب، لكن ليس هناك أقسي من تجربة أن يري ابنه الوحيد يموت حيًا، فكان بمثابة حكم علي رجل عجوز بأن يعيش وحيدًا أبدًا الدهر، هبط درجات السلم مستندًا بيديه علي الحائط وممسكًا في اليد الأخري بعكاز يشعر بألم صاحبه، انكسر العكاز كما انكسرت روح مالكه، فسقط الرجل منكفئًا علي وجهه وظل علي حاله بضع ثوانٍ حتي استجمع شتات نفسه الممزقة، تماسك ونهض وساعده علي ذلك من كان بجواره وبخاصة تلك الفتاة، نظر لها فشعر بألفة تجاهها، لكن ذاكرته لم تسعفه ليعلم من تكون، شكرها وغادر قبل أن تواصل هي أيضًا طريقها في اتجاه آخر.

بخطوات متثاقلة وأيدٍ مرتعشة وعينان زائغتان لا تستقران أبدًا علي شئ مهما كان جاذبًا للانتباه، يسير سعيد متوجها إلي ذلك المكان الذي لا يعرفه أبدًا، لم يره من قبل، ولم يتوجه إليه سواء كان وحده أو مع أحد من طاقم المستشفي، ينقاد إلي تلك الحجرة ببوصلة لا تري، لكنه يشعر بها تقوم بتوجيهه حتي وصل إلي غرفة الطبيب المعالج له، تصادف وجوده في المكتب، كان مستغرقًا في أوراقه، حاملاً علي أذنه سماعة الهاتف، يحادث شخصًا، ويبتسم قبل أن يتيبس وجهه ويصدم بقوة عندما فوجئ بسعيد يقتحم عليه مكتبه ، اقتحام نفسي دون أن يكون ماديًا، كيف وصل هنا؟ سؤال طرق عقل الطبيب ليتلقي إجابة لا يعرف مصدرها، أما فحواها فهي أن هناك العديد من الأمور في ذلك العالم لم يصل العلم بعد إلي تبرير لها، وسعيد هو أحد تلك الحالا ت، بمجرد أن رأي سعيدًا حتي أسرع إليه، وقف أمامه يتأمل وجهه، هناك اختلاف، لكنه ليس بالوضوح الكافي ليظهر سوي أمام من يتفحصه، رأسه أصبحت منزوعة الشعر من الأعلي بشكل دائري، وعيناه

فيهمها من الاحمرار والتوحش ما يثير التوجس فيمن يراه، اضطراب لا تخطؤه العين يظهر علي عينيه، أمسك بيد سعيد وقاده فانقاد ككائن مسلوب الإرادة، أجلسه أمامه ثم اتخذ لنفسه مكانًا خلف مكتبه، لم ير الطبيب حياة في روح سعيد حتي خيل إليه أنه إذا وضع يديه علي أنف سعيد ليكتم أنفاسه لاختنق دون أن يبدي أدني مقاومة تذكر، حاول أن يستثيره بشتي الطرق، لكن سعيدًا أشاح بوجهه بعيدًا وأعقب ذلك بفعل أشد غرابة فقد أخرج رزمة من الأوراق، تلك إلي منحها إياه الأطباء في المشفي، حملها كما يُحمل المولود في حنان وخوف، ومازال الطبيب ينظر إلي الموقف في ترقب وتعجب يحاول أن يقرأ ما يحدث، حتي نهض سعيد وتبدلت عيناه من موت كامل إلي حياة كاملة، ثم اقترب من الطبيب في خطوات متسارعة تتنافي مع ذلك الضعف الذي ظهر عليه منذ قليل، حتي إن الطبيب قد أصابه الفزع، توقف سعيد ومال علي أذن الطبيب وقال بكلمات هي الأولي له منذ أن دخل المستشفي : "انتهت، ديمومة الحياة، أو ستنتهي قريبًا، جميعكم ساذجون، مخطئون، مذنبون، والحياة لن تنتظر أحدًا منكم، إلا أنا الباقي مخلدًا أبد الدهر" تنفس قليلاً ثم قال :"تموتون ولا اموت، تتألمون من الفراق والوحدة وأظل شاهدًا علي عصور ستأتي ثم تمضي، مصطحبة معها أجيالًا من البشر، حاول أن تبشر أولياءك بذلك الأمر وأنا أثق في فشلك"

وما إن انتهي من إلقاء آخر حرف من تلك العبارة حتي كانت عيناه قد عادتا إلي حالتهما المرضية الأولي، ثم سقط علي الأرض، هرع الطبيب لإسعافه، واستدعي الأطباء لينعشوه، يبدو أنه تناول المصل معنا، يبدو أنه مات.

المكان : مشرحة إحدي المستشفيات

- متي وصلت تلك الجثة؟

تساءل أحد العاملين في المشرحة، كان النعاس قد نال منه، فتلك هي الساعة الأخيرة من وردية طويلة يقضيها في حصر عدد جثث الموتي الواردة إليه، أجابه زميله:

- وصلت بالأمس، أحضرها رجل في العقد السادس من العمر.

ثم أردف قائلا:

- يبدو أنه والد المتوفي، ما لفت انتباهي هو عدم بكائه، اعتقدت الأمرقوة منه، لكن عينيه كانتا تشعان ضعفًا لا يخفي عن الناظر إليه.
- وأين سندفنه ؟
- لا أدري، الأمر لم يكن أبدًا سهلاً، فقد اتصل أحد أفراد الحكومة الفيدرالية ليطمئن علي وصوله، وأن الأمور تسير بسلاسة؛ بل طلب من الإدارة أن نخبره أولاً بأول بما يحدث حتي يتم دفنه .
- هل حددوا مكانًا أو وقتًا للدفن؟؟
- لا أدري، لكن لا تقلق، فمثل تلك الحالات لا ندفنها سريعًا، يجب أن يتم معاينتها ظاهريًا قبل أن نشرع في التشريح لمعرفة سبب الوفاة ثم نقوم بتسليمها للدفن.
- حسنًا، تلك هي آخر وارد إلينا، وقِّع هنا حتي ننهي عمل اليوم.

أُغلق الباب، واطفئت الأنوار الخافتة التي أضاءها العاملون ليروا ما يساعدهم علي أن يكملوا توقيع أوراقهم، فعم ظلام حالك في مكان رطب بارد

يخلو من أية أنفاس، حتي وإن كانت متقطعة، لكن لحظات السكون لم تستمر طويلاً، فحركة ما بدأت في الظهور، وحياة دبت من جديد، القادم من الموت يحيا ثانية، يعود للدنيا، قد تكون معجزة ما، وقد لا يتعدي الأمر كونه خطأً طبيًا من طبيب شاب لا يملك من الخبرة أن يحدد إن كان الميت قد فارقهم أم مازال يمارس معهم ألاعيب الموت والحياة، فتح عينيه بطريقة غير اعتيادية، فموقفه غير اعتيادي، وحياته السابقة لم تكن أيضًا اعتيادية، بل هي ملحمة من عاش ورأي، اعترض ثم وافق، بل أمعن في الموافقة، دافع عن الموت، لكن الأمر لم يلبث أن تطور فدافع عن الخلود، وفي سبيله قتل أقرب أصدقائه ثم مات أو أدعي الموت، بدأت أنفاسه تعلو، وظهرت عيناه لامعتان في مكان مظلم لا ضوء يأتي له سوي من تحت الباب، حيث يتسرب ذلك الضوء الخافت القادم من إحدي المصابيح الضعيفة، تحسس الميت جسده، وضع يديه علي نبضه، علي وجهه، علي عينيه، لايجد ما يؤكد أنه ميت، وأيضًا لا يجد ما يؤكد أنه حي، لا يعرف أي حالة يعيش، فقام مستندًا علي يديه، خدرُ جسده بدأ يتبدل ليحل محله دفءٌ يحاول أن يجد لنفسه مكانًا بين صقيع الموتي، عاريًا وقف علي قدميه، منهكًا حاول أن يسير، شعر بأن هناك شيئًا معلقًا في الأصبع الكبير من قدمه اليمني، نظر له ليري قطعة من الورق المقوي متصله بجسده عبر سلك معدني ملفوف، فقام بحله ونظر في تلك الورقة مستعينًا بذلك الشعاع الصغير، فرأي اسمًا مكتوبًا عليها "سعيد"، أصيب بحالة من الضجر، كيف لهؤلاء المساكين ألا يكتبوا اسمي كاملاً، سأكتبه حين أملك ورقًا وأقلامًا، سأضع علامة تميزني عن الجميع، سأكتب "سعيد الديمومي"، اذا كنت قد ولدت سعيدًا لأضيف لنفسي ذلك اللقب، رغم شعوره بالضجر إلا أنه حاول ألا يشغل باله كثيرًا، فهناك عدد كبير من الأخطاء ترتكب في ذلك العالم، و يقع فيها البشر، وتلك هي إحداها، الضوء يأتي من أسفل الباب فخمن أن مفتاح الإنارة بجواره، وبالفعل كان تفكيره صحيحًا، فاتجه صوبه محاولاً أن يتفادي أشياء رأتها عيناه التي اعتادت علي تلك الإضاءة الضعيفة، أضاء النور ليُصدم بما رآه، أجساد مستلقية علي عدد من المناضد المعدنية،

أموات جثثهم ملفوفة في أكفان بيضاء، كثيرًا ما رآها في أحلامه، وضع يديه علي عورته يحاول أن يخفيها، لايعلم من قد ينظر إليه، فالأموات لا يرون، لكنه رأي ضرورة فعل ذلك، أصابته دهشة ممزوجة بخوف، فعاد البرد ليتسلل إلي جسده ثانية، وتساؤلات تتقافز إلي ذهنه، وذكريات تتشكل، جعلته يبحث عن مخرج من ذلك المكان، لف جسده بإحدي تلك الأكفنة البيضاء التي يُلف بها الموتي، فتح الباب لم يكن هناك أحد، خرج بحذر، استعان بعلامات إرشادية كتبت علي ذلك الحائط لتكون معينًا للتائه في ذلك المكان، منذ دقائق معدودة كان يعرف طريقه، القبر كان مصيره بعد ان يمر برحلة شاقة يتم فيها تشريح جسده لمعرفه كيف مات، حتي يصل إلي قبر يرقد فيه ويهال عليه التراب، ثم لا يمر وقت طويل قبل أن يتآكل وجهه بفعل الدود الباحث عن تلك الجيف ليعيش عليها، هكذا سيكون حاله لولا أن تم إبلاغه وعقد الاتفاق معه ليسلك طريقًا آخر فتبدل حاله وعاد لحياته، عاد ليفعل ما وعد أن يفعل إذا أبلغ تلك الرسائل، إن شهد الناس موته، فسوف يشهدون عودته، شخص آخر بتفاصيل جديدة وحياة أيضًا جديدة، حياة صنعت خصيصًا له مكافأة علي تنفيذه ما أُملي عليه أن يفعل، لقد نفذ الجانب الخاص به من الاتفاق، وأكل من الشجرة، لم يتبق سوي تنفيذ الجانب الآخر من الاتفاق هكذا عاد ليكمل دورته من جديد.

المكان:مكان ما علي كوكب الأرض

الزمان:حين فقد الكون ذلك الاهتمام الفطري بتسجيل التاريخ.

اعتاد يوميًا علي الاستيقاظ في نفس الموعد، إجراءاته المعتادة لم تتغير أبدأ، داوم عليها وجعلها عادة لا تنقطع، ويبدو أنها لن تنقطع، فتلك هي آخر ما يحدث علي الأرض، بدونها ينتهي التاريخ وتتوقف عجلة الزمن عن الدوران، انفض الجمع إلي غير رجعة، فلم يعد هناك كائن غيره، صادق ظله، اتخذه رفيقًا له في الحياة، وإن اقتصر وجوده علي فترة بقاء الضوء

فقط، فاعتبره زائرًا يغادر حين تغرب الشمس، حدثه كثيرًا كي يشعر بدفء الونس الغائب، أكل معه، وقص له ذكرياته عن حياة كانت بالماضي موجودة.

السابعة صباحًا

تدق الساعة، ببطء يفتح عينيه، يتكاسل في النهوض، ود أن يبقي دون حراك، لكنه تعلم أن الحركة دفء، والدفء حياة لا برودة فيها، فنهض ليؤدي واجبه اليومي، حمل فأسه وتوجه إلي حقله أسفل تلة يسكنها، لم ينس أن يلقي تحية الصباح علي ظله حين رآه يتراقص أمام عينيه علي الحائط، متخذًا خطواته، حاملاً فأسه، محادثًا ظله، وصل إلي حقله، بدأ العمل في جد ونشاط انحني ملتقطًا بضع ذرات من التربة ذات اللون الأحمر القاتم لاختلاطها بالدماء، اعتاد أن يشم رائحتها فتزكم أنفه، تلك الرائحة النحاسية، لا يهم، فهو يعرف مدي خصوبتها، كثيرًا ما أسقط عليها منيه، علها تنبت له أشخاصًا ينشرون معه جنس البشر من جديد، لكن هيهات، فلن يُخلق آدم من جديد، تلك أرض تبتلع من يطيل البقاء عليها، وهي عادتها منذ أن سواها الرب، تساقطت دموعه وتناثرت رغمًا عنه، يحاول أن يسترضيها لترضي، وتنبت له ذرية يقوي بها ظهره، لكن دون جدوي، فالخير لم يعد له قوة، والشر قد استحكم أمره، وأمسك برقبة البشر فجعلهم خدمًا له، فأنهي عليهم حين لم يعد لهم فائدة، تقدم به العمر كثيرًا وفقد من بصره حدته حتي صار لا يصدق ما يراه بسهولة، ورغم ذلك فإن الحقيقة ستبقي كالشمس ظاهرة للعيان لا تخبو أبدًا، ذلك ظل رأه، حتمًا لا ينتمي له بأي حال من الأحوال، لم يكن أبدًا ذا شعر بهذا الطول، أو حاملا علي صدره ذلك البروز الظاهر بشدة، أيكون ذلك ثمرة مجهود لم يتعد ثوان معدودة أم أن هناك من قرر البقاء ونجح متجنبًا ما فشل فيه الجميع، قد تكون تساؤلاته ليست ذات قيمة أمام أنه لم يعد وحيدًا كما ظن وتصور.

منذ زمن طويل لم يشعر بمثل ذلك الإحساس، كان من المفترض أن يرقص فرحًا، لكنه لم يفعل، لم يجرؤ حتي علي أن ينظر خلفه، اعتدل في هدوء ثم أنفجر هلعًا، فأطلق لساقيه الريح، صعد التلة، أراد أن يحتمي بكوخه، ينتفض ويتعرق بغزارة، فتح الباب وأغلقه سريعًا وألقي بنفسه أسفل فراشه، يقضم أنامله من الرعب، يعجز عن التفكير، يعجز عن السيطرة علي نفسه، تلك اللحظات يتدفق فيها الإدرينالين بقوة شلال، لكنه الفزع ولا شيئ أقوي منه، من صاحب الظل؟! من أين أتي ؟! ولما جاء الآن؟! أهناك أحد غيره؟! والأهم هل مازال صاحب الظل علي قيد الحياة؟! أم أنه ترك ظله ليحيا بديلا له؟! بهدوء تقترب الخطوات من باب الكوخ الواقع في مواجهة الشمس فيزيد تدريجيًا حجم الظل، نهض سريعًا من تحت فراشة، أحضر عصاً كبيرة، تسلح بها، لكنه عرف أن محاربة الظل لن تكون ذات جدوي، فأوصد بها الباب علة يصده ولو لوقت قصير، وقف الظل أمام الباب، سد الأفق فمنع الشمس أن تدخل، ثوان مرت وكأنها ساعات لا تنتهي، سكون وهدوء والصمت حاضر كضيف لا يغادر بسهولة، ظل منتظرًا، يترقب تلك اللحظة حين يمد الظل يديه ليفتح الباب ويدخل، لكن الظل بقي دون حراك، الشمس علي وشك أن تغيب، والظل علي حاله ساكن لا ينبض بالحياة أبدًا، لا يُخرج صوتًا، فقط يقف كظل لا يتحرك دون صاحبه، حين بدأ الغروب همّ أن ينهض، فالخوف سينتهي دون شك، وغدًا يوم جديد، لكنه بمجرد أن فرد قامته حتي فوجئ بما تبقي من الظل، وكأنه يجلس علي الأرض متخذا منها مقعدًا له، فعاد إلي جحره ثانية، وأشعل شمعته، ظل يراقبه حتي اختفي في ظلام الليل الحالك، فالقمر لم يحضر تلك الليلة .

الثالثة بعد منتصف الليل .

اختفت تلك السحب الليلية ذات اللون البني الداكن، عاود القمر ظهوره، فتحول الشعاع إلي ضوء نري من خلاله الأشياء، مازال الرجل جالسًا أسفل سريره، غلبه النعاس قليلاً، لكن حاسته القوية تجاه كل ما يشكل خطرًا قد

أيقظته علي خيال يتراقص علي ضوء شمع مضاء وقمر يُسقط ضياءه ليختار ذلك الكوخ كنقطة تجميع لتلك الأشعة، الخيال يتحرك بهدوء وثقة، يدور حول الكوخ وكأنه يبحث عن باب يعبر خلاله، مجددًا يخفت ضوء القمر وتتضاءل نيران الشموع ليعم الظلام من جديد فيختفي الظل مجددًا، فينام الرجل لا يلوي أبدًا علي شيء يخيفه، لكن الأمن والطمأنينة غالبًا لا يستمران، والسكون يسبق العاصفة، لتأتي مفاجئة علي حين غرة، استيقظ الرجل مقيدًا، يتلفت حوله في ذهول من المشهد، بئر قد جفت ماؤه ذو ارتفاع ليس بالطويل الشاهق ولا القصيرالمنخفض، فلا يتعدي طوله العشرين مترًا، ينظر إلي أعلي فيلمح من ينظر إليه، حاجبًا برأسه شمس النهار عنه، حاول أن يحرر نفسه ولكنه يفشل، فالحديد لا يُقهر، وصرخاته لا تُسمع، ها هو الأمر قد انتهي والموت قادم لا محالة، إذن فليأتِ سريعًا دون تباطؤ أو ألم، لن يحتمل العذاب، يبدو أن الاتفاق قد تم نقضه، أغمض عينيه اعتراضًا أو تسليمًا لا يهم، فقد اتخذ قرارًا أن لا يفتحهما أبدًا، تعطلت لديه حاسة الشم واللمس أيضًا، فلم يعد يشعر ببرودة الأصفاد تلتف علي معصميه، لو مات الآن فذلك بعث جديد اختصه الرب به، أما لو ظل علي وضعه وعاش فهو الذل والقهر، منذ أن اختار حجب الشمس عن عينيه ولم يعد للأيام حساب عنده لم يعد يعرف عددها، في إحدي اللحظات المميزة يشعر بشئ مختلف، في البداية لم يُلق له بالاً، فقد ظنه خيالاً، لكنه أيقن وجوده حين فتح عينيه ليجد حبلاً متدليًا قد مد إليه من أعلي، وقيوده قد حطمت، وحرية قد منحت له مجددًا، فرحًا حدث نفسه بأن يصعد باستخدام الحبل، وبالفعل بدأ في اختباره، فوجد منه قوة تشجعه علي الصعود، تمسّك، وبدأ ينظر إلي الأعلي حتي وصل إلي فوهة البئر، مد يديه ليخرج، ففوجئ بها تدفعه ليسقط مجددًا، دوت تلك الضحكات الساخرة في أذنيه، ونور الشمس يغزوه حتي اصيب بلسع من ضوئها المسلط علي وجهه ورأسه الذي أصبح خاليا من الشعر وذلك حين مر شعاعه عبر سقف الكوخ كثير الفتحات، استيقظ وقد بلل العرق كامل جسده، لقد نام لوقت أكثر من المعتاد فنهض سريعًا، رأي ظله أمامه، لكن الظل الآخر قد اختفي،

بحث عنه كثيرًا دون جدوي، حمل فأسه وطعامه وتوجه إلي حقله، عقله لا ينفك يفكر فيما حدث بالأمس، هلاوس أصيب بها، وربما حقائق كونية لا تفسير لها، غيبيات لا يجب أن يسأل عنها، وغياهب كونية لن تفيد عقله بشئ أبدًا سوي إرهاق مضنٍ من كثرة أسئلة دون إجابة، يهبط التلة تدريجيًا، عيناه في شتات حتي ركزت علي تلك البقة البيضاء من التربة سوداء اللون، كلما اقترب منها كان المنظر أقوي والصورة أوضح، ذلك الشعر المنسدل بلمعان كستنائي، ظهر بشدة مع انعكاس ضوء الشمس الساطع، يتهدل علي كتفيها كشلال يتساقط من أعلي جبل ليغطي ذلك الظهر العاري خمري اللون المائل إلي الحمرة فيعطي جمالا وأنوثة مشتهاة، منذ فترة طويلة لم يعد يتذكر عدد أيامها لم يعد يري مثل هذا الكائن أو غيره، ببطء يزيح الشعر ليري أمامه صورة من كتابات طبعت علي الجلد فأصبحت شيئًا منها "رأيت حقيقة الأشياء ولم تبالِ، ظننت نفسك إلهاً فتشبثت بالحياة لتري نهايتها، قاومت الرب ولكنك لم تقاوم سوي نفسك، تخلي عنك جميع الخالدين من أمثالك، قاوموا تطرف أفكارك التي ظهرت منذ أن قتلت أصدق الأصدقاء لديك، وشيت بالجميع لتحيا وعقدت اتفاقًا لتجمع حولك الرافضين للموت ممن هم علي شاكلتك، وعلي عكس ما تمنيت في أحلامك لقد أثبت الموت دومًا ألا طائل للحياة من دونه"، قرأ تلك الكلمات، لا لم يكن يقرؤها بل اخترقت خلايا مخه لتأخذ فيها مكانًا تنصهر فيه "أصبحت وحيدًا في أرض لا مكان لأحد غيرك فيها، تلك أيام قادمة ومنحت فيها الفرصة، عوقبت بالوحدة كما عوقب الأب الأول، أما الآن فعليك أن تفعل وانتظر تلك الإشارات تباعًا."

نظر لها، غاصت عيناه فيها، باحثًا عن شئ لا يدري كنهه، أي مكان جاءت منه، وأي قدر رماها إليه، تلك الأنثي لا تتحرك، مستسلمة مسلِّمة دون حتي صوت يصدر منها، يلتف حولها ليستطلع وجهها، فتنظر له في خجل ساحر، يخلع ما عليه من ملابس ويسترها، يضمها إليه ويحتضنها بين ذراعيه يمنحها الدفء والأمان، فتهون بين يديه لينة، هادئة، سائرة خلفه، فيذهب بها

إلـي كوخـه وهـو يعلـم أنهـا فرصـة أخـري كـي يصـلح مـا أفسـده بالماضـي، ومازالت تلك الفرص تتوالي وسوف تتوالي... لكن الإنسان لا يفهم.

obeikan.com

تلك رواية لا تنتهي أبدًا فخلقاتها متداخلة، صراع لا يهدأ وحرب لا تخمد، موت وحياة، نقمة ونعمة، إثبات أن الفرق بين الحقيقة والعبث لا يتخطي خيطًا لا تراه عين غافلة.

عامر
صالح محمود

obeikan.com